

سلسلة رواد التنوير

أمير الشعراء
أحمد شوقي

د. عبد المنعم ابراهيم الجميعي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

الفهرس

مقدمـــة

كتب النقاد والمختصون دراسات جادة عن أمير الشعراء أحمد شوقى، واختلفوا فى تقييم أشعاره ولكنهم أجمعوا على أصالة جوهرها وتميزها بوضوح المعنى، وجزالة الأسلوب وفخامة الكلمة، وموسيقية التعبير، وبأن شوقى لم يكن شاعراً ينسق الجملة تنسيقا موسيقيا بل كان شاعراً ملهماً يؤمن بأنه سيعيش بشعره، وجاء الزمن وأثبت أن الشعر الصحيح لا يموت، أيا كان إطاره واتجاهاته. لقد لاقى شوقى فى حياته هجوما من خصومه، فاتهموه بالعمالة لقصر عابدين وللخديوى والحقيقة انه بالرغم من انتماء شوقى للقصر فقد كان ينفعل بمشاعر الشعب ويعبر عن الاتجاه الوطنى فى كثير من المواقف، وإن كانت ظروف وظيفته كشاعر الأمير تقتضيه أن يستعمل الدبلوماسية والكياسة فى بعض أشعاره.

لقد كان شوقى يكره الإنجليز والاحتلال، ويناصر الحزب الوطنى ويؤمن بالخلافة العثمانية ويقترب من الحركة الوطنية بحذر ولكنه بعد أن تحرر من قيوده الوظيفية بالقصر، ناصر الحركة الوطنية التى انبعثت خلال ثورة ١٩١٩ صراحة وإن لم يكن متحزبا لطرف من الأطراف.

إن شوقى موهبة صقلتها ثقافات متعددة، شملت التاريخ والسياسة والقانون والآداب العالمية والفنون والأديان وأصول اللغة وغيرها، وهو شاعر فنان شق طريقه إلى الخلود، وعبر عن خواطره وانفعالاته بقوة وطلاقة، وربط مصيره بمصير وطنه الذى ولد فيه، فآمن بمصر الفرعونية، ومصر العربية الإسلامية ومصر الحضارة التى تتحدى بها الزمن، وتنحنى لها هامة التاريخ.

لقد ساير شوقى حركة التجديد، واستعان بروعة الشعر العربى القديم وذاق كلماته بشكل جعله يختزن منه فى ذاكرته الكثير، كما تأثر بدراساته الأولى وبدراسته فى باريس ومزج كل ذلك فى ذاكرته ومخيلاته، وصاغه فى شعره.

ولتوضيح كل هذه الأمور فقد قمنا بتقسيم موضوعات هذه الدراسة إلى ثلاثة فصول تناولت نشأة شوقى ومراحل حياته وشعره السياسى والوطنى ومحاولاته الجادة فى التأليف المسرحى وبالإضافة إلى مقدمة وخاتمة أبرزت خلاصة الموضوع.

المؤلف

الفصل الأول

نشأة شوقى ومراحل حياته

ولد أحمد شوقى أمير الشعراء بالقاهرة فى عام ١٨٦٨ لأسرة امتزجت فيها الدماء العربية والكردية والتركية، فعلى الرغم من أن والده مصرى المولد وكذلك كانت والدته فإن أجداده من أصول كردية عربية وتركية قدمت إلى مصر فى عصر محمد على وقد أوضح شوقى ذلك بقوله: "أنا إذن عربى تركى...

ولكن مصر هى بلادى وهى منشئ ومهادى ومقبرة أجدادى"، وقد نشأ شوقى فى سعة من العيش خاصة وأن جدته كانت على صلة وثيقة بقصر عابدين حيث كانت تعمل وصيفة بالقصر ويذكر من طفولته حادثة طريفة ذات مغزى وهى أن شوقى كان يعانى فى طفولته من إختلال فى الأعصاب فلا ينزل بصره عن السماء، ولا يتجه إلى الأرض ولما قدمته جدته إلى الخديوى اسماعيل لتشكو له هذه المشكلة وكان وقتذاك فى الثالثة من عمره بدر الخديوى أمامه قطع نقود ذهبية دفعت رنينها إلى أن يتجه ببصره إلى الأرض للعب بهذه النقود، وكان ذلك بمثابة الدواء الذى عولج به شوقى حيث أصلح الارتجاج العصبى الذى كان يعانى منه مما أسعد جدته، وانتابها الفرح فقالت للخديوى هذا الدواء لا يخرج إلا من باب صيدليتك يا مولاى. وبعد أن تلقى شوقى تعليمه الابتدائى التحق بالمدرسة الخديوية، وتخرج منها فى عام ١٨٨٣ وخلال هذه الفترة أحب الشعر حبا جما وحفظ الكثير من أشعار العرب. وقد التحق شوقى بمدرسة الحقوق لدراسة القانون بالرغم من معارضة ناظرها لصغر سنه وذلك بوساطة القصر الذى تعمل به جدته وأثناء ذلك كانت عبقريته الشعرية قد وضحت

فألقى أشعارا فى مدح الخديوى توفيق فى المناسبات التى استرعت نظره. ولما كان بمدرسة الحقوق قسم للترجمة يمكن للطلاب الالتحاق به بعد سنتين من الدراسة، فقد التحق به شوقى ونال الشهادة فى فن الترجمة فى عام ١٨٨٩ وفى أعقاب ذلك أُلْحِقَ فى المعيه السنية بقلم السكرتارية، وعن ذلك يقول شوقى فى مقدمة ديوانه "وبينما أنا أتردد على المغفور له على باشا مبارك ورد عليه مرسوم من المعية السنية بطلبى إليها. ولما مثلت بين يدى الخديوى توفيق باشا ولم أكن رأيته من قبل، ولكن مدحته مرارا وأنا فى المدرسة خاطبنى بهذا اللفظ الشريف: " قرأت يا شوقى فى الجريدة المصرية أنك أعْطيتَ الشهادة النهائية وكنت انتظر ذلك لألحقك بمعيتى" وفى فبراير ١٨٩٠ تم تعيين شوقى فى المعية إذ نشرت الوقائع المصرية فى عدد ٣ مارس ١٨٩٠ قصيدة "من قلم الشاعر احمد أفندى شوقى الذى وُظِّفَ فى قلم السكرتارية الخديوية مطلعها:

نفديك من ملك فى زى إنسان فكم لذاتك من حسن وإحسان

كما نشرت الوقائع فى عدد ٢١ ابريل ١٨٩٠ قصيدة من قلم أحمد شوقى ومطلعها:

هذا العزيز وذاك باب نواله تتبختر النعماء تحت ظلاله

كما نشرت قصيدة لشوقى فى عدد ٢ أغسطس ١٨٩٠ مطلعها:

لك مصر يجرى تحت عرشك نيلها ولك البلاد عريضها وطويلها

ولما أحس الخديوى توفيق باخلاص شوقى لعرشه ، وما يتميز به من ذكاء وفصاحة رأى إرساله إلى أوروبا على نفقته الخاصة لدراسة القانون والأدب الفرنسى، فسافر إلى فرنسا فى أوائل يناير ١٨٩١ حيث ركب البحر لأول مرة فى حياته ، وكما يذكر فى مقدمه ديوانه " الشوقيات" أنه بعد وصوله إلى مرسيليا وجد مدير الارسالية فى انتظاره لإخباره أن

الأمير أمر بأن يقضى عامين فى مدينة مونبيليه وآخرين فى باريس، وأنه اصطحبه إلى مونبيليه وأدخله فى مدرسة الحقوق بها، وهناك خلع طربوشه ولبس القبعة كما لبس الملابس العصرية التى لا تتنافى مع قيمه ومبادئه. وبعد أن قضى شوقى السنة الدراسية الأولى فى مونبليه التمس من الخديوى السماح له فى العودة إلى مصر لقضاء العطلة الصيفية بها، ولكن الخديوى رفض طلبه وطالبه أن يبقى أربع سنوات كاملة فى أوروبا لينهل من علومها ومن الثقافة والأدب فيها، فذهب شوقى مع رفقائه من الفرنسيين لزيارة مدن جنوب فرنسا كما أخذ ينهل من الأدب الفرنسى خاصة أدب هوجو وراسين ولامرتين، واسكندر ديماس وأميل أوجييه، وغيرهم من الأدباء والقصاصين. وبعد انتهاء السنة الثانية سافر فى رحلة إلى انجلترا حيث قضى حوالى شهر، وبعد عودته إلى باريس تعرض لأزمة صحية أفزعته حيث كانت الكوليرا منتشرة فى فرنسا وتوالت على مخيلته صور شديدة التشاؤم حيث أدرك ان الموت أصبح قريبا منه وبعد أن تماثل شوقى للشفاء، أشار عليه الأطباء أن يقضى بعض الوقت فى منطقة حارة مثل أفريقيا فسافر إلى الجزائر ومكث بها أربعين يوما ضمه خلالها الجو الشرقى بين ذراعيه، فأحس بالسكينة خاصة بعد ان قابل بعض المصريين هناك وبعدها عاد إلى باريس لاستكمال دراسته ، إلى أن انتهى منها وحصل على الشهادة النهائية ثم بقى فى باريس فترة ينتقل فيها بين مسارحها، وبين مراكز الحياة الفكرية بها، ويسوقه وجدانه المصرى إلى المتاحف ومناطق الآثار خاصة متحف اللوفر الذى يحوى العديد من الآثار المصرية.

ومن باريس أرسل شوقى إلى الاهرام قصيدة تبين ما فى صدره من كلمات حائرة، باعثة لليقظة تصدح بالأمل بعد وفاة الخديوى توفيق وتولى الأمير الشاب عباس الثانى حكم مصر، وتشجيعه للحركة الوطنية وسعيه لاسترداد سلطاته من الانجليز فيقول:

هذه مصر جاءها الدهر يسعى	وهويا طالما جفاها وصدا
ليس للدهر من وفاء ولكـــن	هاب فيها العباس ان يستبدا
صاحب النيل للبرية أيـــة	حرر النيل للبريـــة وردا
وأرفع الصوت ان عصرك حر	لن يرى من سماع صوتك بدا
إنما الملك أن تكون بـــلاد	وتصيب البلاد بالملك مجددا
ومر العلم أن يزور بـــلادا	عهدتها له الخلائق مهـــدا
قل لراج أن يسترق يراعـــى	أنا لا أشترى بذا التاج قيـــدا
نومة السيف قد تكون حيـــاة	ورأيت اليراع أن نـــام أردى[1]

وتتنوع أنغام أناشيد شوقى ومعزوفاته من القوة الخطابية إلى الهمس التصويرى، ومن مجال السياسة والإثارة إلى مجال المجتمع والتنبيه بحقوقه، فالقضية ليس قضية جلاء وحسب وإنما هى قضية الشعب كله وتحرره من الاستبداد والفقر والجهل، وليس فى مصر من أعطى كل شئ

(١)الأهرام : ١٨/٣/ ١٨٩٣.

وفقد كل شئ سوى الفلاح الذى روى الأرض بعرقه ودموعه، فيغنى له قصيدة يقول فيها:

قد مثلوا فى صورة مزوقة	كأنهـا قصيـدة منمقـة
رسم مليـك محكم التمثيـل	بصولجـان المجـد والإكليل
وتحتـه فى سلم المقـام	شريف قوم شاكى الحسـام
وعسكرى شاهر الحسـام	وسائل منحـدب القـوام
وتحتهم جميعهم فـلاح	فى كيسه محصوله المبـاح
ودون كل صورة عبـارة	تفيد ما تعيى بها الاشـارة
يقول فيها الملك أنى السائـد	فيكم، والشريف أنى القائـد
والكاهن الثانى أنا أصلـى	جلكم فريضتـى ونفلـى
والعسكرى أننى أحميكـم	والسائل المكـدود أستعطيكـم
ويضرع الفلاح حسبى ربـى	أطعمكم جميعكـم من حبـى
ينهكنى حملكم الثقيـل	وليس عندى لكل جميـل(٢)

بالإضافة إلى ذلك فقد جاءت قريحة شوقى بأروع أشعاره الخالدة مثل نهج البردة وغيرها كثير فى المدح والغزل، أنها ملكة الشعر التى أسرت لبه وآن له أن يفرغ لها بعد أن كان موزع النفس فى كل اتجاه.

وفى عام ١٨٩٣ بدأ شوقى يعد لرحلة العودة إلى مصر، بعد أن قضى فى باريس أجمل أيام شبابه، وتلقى من علومها وفنونها ما أمده بثقافة حديثة أعانته فى فهم ما لم يكن يعرفه قبل السفر إليها.

وما أن عاد شوقى إلى وطنه حتى قربه الخديوي عباس الثانى إليه، وعينه رئيسا للقسم الافرنجى بالقصر، واتخذه شاعره وقد كتب شوقى قصيدة فى الخديوي الشاب مطلعها:

•

---

(١) الشوقيات المجهولة، ص ١٤- ١٥.

يا عزيز الانام والعصر سمعـــا | فلقد شاق منطقى الإصغـــاء
إن عصرا مولاى فيه المرجى | أنـــا فيه القريض والشعراء

وقد أُرْسِلَ الخديوى شوقى إلى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى چنيف عام ١٨٩٤ مندوبا من الحكومة المصرية وهناك ألقى شوقى قصيدة تتحدث عن مصر من عصر الفراعنة إلى العهد الذى قيلت فيه تتضمن حوادث تلك العصور. وفى هذه الفترة تعرف شوقى على مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وغيرهم من السياسيين وحافظ ابراهيم واسماعيل صبرى من الشعراء، كما تعرف على عبده الحامولى وعبد الحى حلمى من المطربين، ورغم التنافس الشديد بينه وبين حافظ فقد عاشا يغمر كل منهما الآخر بتقديره، وحدثت بينهما قفشات وممازحات كثيرة تدل على مدى قوة العلاقة بينهما.

وخلال ذلك أخذ شوقى يهتم بقراءة كتب الأدب والتاريخ رغبة فى التعرف على جذور الشخصية المصرية الممتدة فى أعماق التاريخ الفرعونى والإسلامي فقرأ عجائب الآثار للجبرتى والكامل فى التاريخ لابن الأثير والأغانى للأصفهانى والعديد من دواوين الشعر وتوالت على خياله الصور حول عبقرية الفراعنة وما علموه للدنيا، وقد دفعه هواه بالتاريخ المصرى القديم إلى التقاط قصصه من ذلك التاريخ كما تتواكب صور التاريخ الإسلامي أمامه من فتح عمرو بن العاص لمصر إلى صلاح الدين الأيوبى وغيره وقد استطاع شوقى بفنه وعبقريته الشعرية أن يعالج أحداث التاريخ بأسلوب جديد ساخر ، كما صنع لوحات وتماثيل شعرية رائعة لآثار قدماء المصريين ووضع أول محاولة جادة للمسرحية الشعرية فى الأدب العربى.

ونظرا لأن معارك الخديوي عباس الثانى مع الانجليز فى بداية حكمه يلزمها شاعر ينجح فى اجتذاب مشاعر الناس وعواطفهم ، فقد بدأ الخديوي يدرك أهمية شوقى بجانبه خاصة وأنه قد أولاه بعض المهام التى قام بها بكفاءة كبيرة فمنحه ثقته ، وبدأ يقدمه على رجاله، حتى أصبح صديقه وشاعره الذى يصحبه فى رحلته السنوية إلى تركيا، وهناك اقتنى شوقى على ضفاف البوسفور دارا جميلة رائعة التنسيق أوحت إليه كذلك بفيض من الشعر.

وقد تزوج شوقى فى عام ١٨٩٧ وانجب من زوجته ثلاثة من الذرية أولهم (أمينة) وجاء بعدها (على) و (حسين)، وقد استاثرت أمينة بأكثر شعره فى الأسرة لأنها كانت من وجهة نظره تمثل الحنان ورمز الطفولة البريئة فقال عنها:

ولى طفلة جازت السنتين	كبعض الملائك أو أطهر
بعينين فى مثل لون السماء	وسنين يا حبذا الجوهــر
فقلت لها أيهذا المـــــــلاك	تحب السلام ولا انكـــــر
ولكن قبلك خاب المسيـــــح	وباء بمنشوره القيصــــــر
ومن يعدم الظفر بين الذئاب	فإن الذئاب به تظفــــــــر
فخذ هاك " بندقة " نارها	سلام عليك إذا تسعــــــــر
ففيها الحياة لمن حازهــــا	وفيها السعـــادة والمفخــر

كما غمر حنانه وحبه الشديد لابنيه على وحسين، لقد كان أحب الأوقات إلى نفس شوقى هى ما بعد الغداء حين يفرغ للقراءة، التى تبعده عن كل صراع إلا صراع الفكر، أما وقته فى المساء فموزع ما بين زياراته لأصدقائه من أصحاب الصحف، ثم العودة إلى "جروبى" وهو فى أكثر تنقلاته يحاول ان يختلط بالناس فيركب الترام ويستمع إلى أحاديث

العامة، حتى إذا ما جاوز الليل منتصفه، آن له أن يعود إلى بيته ، فيتخفف من ملابسه، ثم يلبس جلبابا من الصوف الرقيق ، ويبقى بغرفته يسجل ما نظمه طول يومه، أو يكمل قصيدة بدأها، فإذا اتم ذلك، استغرق فى القراءة إلى منتصف الرابعة، وحده فى هدأة الليل، حتى إذا أذن الديك الصدوح، ترك القلم والكتاب، وأسلم جفنيه للنعاس.

وقد أخرج شوقى الجزء الأول من ديوانه "الشوقيات" فى عام ١٨٩٨ وقدم له بمقدمة أبان فيها عن تصوره للشعر وما ينبغى عليه أن يكون وحاول أن يجدد تحت تأثير ما قرأ فى الأدب الفرنسى لفيكتور هوجو ولامارتين ولا فونتين فكان ذلك سببا لاصطدامه بالنقاد حينئذ فهب محمد المويلحى فى صحيفة "مصباح الشرق" يكتب مقالات بنقد الاتجاه إلى التجديد عند شوقى موضحا أن الشعر العربى ليس فى حاجة إلى تجديد.

أما عن أشعار شوقى الوطنية فمن المعروف ان شوقى كان شاعر القصر لذلك كان شعره الوطنى يرتبط بما يرضى عنه الخديوي، لذلك تفوق شاعر النيل حافظ ابراهيم على شوقى فى هذا المجال وتعلق الناس بوطنياته أكثر من شوقى ومع ذلك فقد برزت وطنية شوقى عندما وقعت حادثة دنشواى عام ١٩٠٦ وأعدم الإنجليز أربعة من المصريين وجلدوا وسجنوا آخرين فكتب شوقى قصيدة يندد بالحادث ويهاجم المعتمد البريطانى كرومر قائلا:

نيرون لو أدركت عهد كرومر   لعرفت كيف تنفذ الأحكـــــام

وكانت هذه القصيدة سببا فى غضب كرومر على شوقى، كما قام شوقى برثاء الزعيم مصطفى كامل بقصيدة مطولة وكانت هذه القصيدة سببا فى غضب اللورد كرومر أيضا على شوقى.

ولما نشبت نيران الحرب العالمية الأولى وأعلن الانجليز الحماية على مصر وعزل الخديوي عباس الثانى الذى كان وقتذاك فى زيارة لتركيا

وكان شوقى فى صحبته فقد منع الانجليز عباس من العودة إلى مصر ولما رغب شوقى فى البقاء إلى جانبه حيث كان طريح الفراش بعد إطلاق الرصاص عليه فقد طالبه الخديوي بالعودة ، لأن الحرب سوف تطول وإذا ما انقطعت المواصلات سوف يكون من العسير عليه العودة، فعاد شوقى على ظهر آخر سفينة متجهة من تركيا إلى مصر، فوجد ان أصحابه أصبحوا يخشون لقاءه خشية غضب الإنجليز، الذين كانوا يعتبرونه من رجال عباس كما أن السلطات البريطانية رأت أن قصائده الوطنية تزيد من كراهية المصريين لها فطلبت منه مغادرة البلاد لصلته بالخديو وارتباطه به فاختار إقامته فى "برشلونه" على شاطئ أسبانيا حيث قضى بها خمسة أعوام مبعدا طاف خلالها بجميع بلاد الأندلس وهناك نظم قصيدته المشهورة قصر الحمراء ومما جاء فيها قوله:

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسـى

كما سجل أمجاد العرب وآثارهم فى بلاد الأندلس التى حكموها ثمانية قرون. لقد كانت سنوات النفى ضاغطة قاسية على نفس شوقى ولكن نبع الشعر الفياض كان معه لم يفارقه ، بل زاده تدفقا وعذوبة.

ولما ازداد شوقه لمصر كتب أبياتا إلى صديقه حافظ ابراهيم يشكو إليه لوعة الغربة فى قصيدة مطلعها:

يا ساكنى مصر أنا لا نزال على عهد الوفاء وان غبنا مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم شيئا نبل به أحشاء صادينا
كل المناهل بعد النيل آسنـة ما أبعد النيل إلا عن أمانينا

غناء حزين ونفس حزينة، وهل يملك إلا الحزن، وقد رد عليه حافظ بأبيات من الشعر كانت بلسما لجراحه وهى:

عجبت للنيل يدرى ان بلبله   صاد ويسقى ربى مصر ويسقينا
والله ما طاب للأصحاب مورده   ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه وأن فارقت شاطئه   وقـــد نادينا وأن كنا مقيمينــــا

ومرت السنوات كأنها الدهر وشوقى فى منفاه حتى أُعْلِنَتْ الهدنة بين الدول المتحاربة فى نوفمبر ١٩١٨ وأذن له السلطان حسين كامل بالعودة، ولما بلغت شوقى أنباء السماح له بالعودة إلى مصر أسرع بالسفر وعندما اقتربت السفينة من الاسكندرية ولاحت أنوارها من بعيد طفرت الدموع من عينيه، وهتف بأبيات الحنين كزفرة طويلة لا نهاية لها:

أنادى الرسم لو ملك الجــوابا   وأجــزيه بدمعـــى لو أثابـــا
ويا وطنى لقيتك بعد يـــــاس   كأنـــى قد لقيت بك الشبابـــا
ولـــو أنى دعيت لكنت دينـــى   عليـــه أقابل الحتـــم المجابـــا
أدير إليك قبل البيت وجهـــــى   إذا فهــت الشهادة والمتابـــا

ووصل القاهرة نبأ عودة شوقى فاستعدت جماهير من الطلبة وغيرها للاحتفاء به أنهم جماهير ثورة ١٩١٩ الذى تخضبت أرض مصر بدماء إخوانهم والتى كانت قد اندلعت منذ شهور واشتركت فيها كل طوائف الشعب. مما جعله ينفعل انفعالا شديدا، فأحس كأنه خلق من جديد، وان عليه دَيْناً فى عنقه لهذا الشعب الذى استقبله على حين ان القصر الذى أصبح فى يد الملك فؤاد بن اسماعيل لم يهتم به أو بعودته، وبدأ شوقى مرحلة جديدة من الشعر كانت من أجمل أيام حياته ، كما تفرغ للمسرح الشعرى الذى كان يهواه، وقد رثى فى هذه الفترة كثيرا من أعلام الوطنية والأدب. ففى اليوم الذى جرت محاولة اغتيال سعد زغلول توفى مصطفى لطفى المنفلوطى فقال شوقى فى سعد:

نجـــــا وتمـــــاثل ربانهـــــــا	ودق البشائر ركبانهـــــا
أرى مصر يلهو بحد الســـــــلاح	ويلعب بالنار ولدانهـــــا
ويا سعد أنت اميـــــن البــــــلاد	قد امتـــلأت منك إيمانها

وقال فى المنفلوطى:

اخترت يوم الهول يوم وداع .. ونعاك فى عصف الرياح الناعى

وأخرج شوقى رائعته " مجنون ليلى" عام ١٩٢٤ فعشقها القراء ولكن نقاد المسرح رغم اعترافهم بعذوبة الشعر الغنائى بها افتقدوا فيها جوهر المسرح وصنف تصوير الشخصيات وقد اختار شوقى صدر الدولة الأموية زمنا للمسرحية وبادية نجد مكانا لها: أما أشخاص المسرحية فهم قيس بن الملوح والمهدى والدليلى وليلى وورد زوج ليلى ومنازل غريم قيس فى حب ليلى. أما قراءة الأدب فقد عشقوا ذلك الطرب الرومانسى الجميل مثل قول شوقى على لسان قيس:

تعالى نعش يا ليل فى ظل قفرة	من البيد لم تنقل بها قدمـــان
تعالى إلى واد خلى وجـــــدول	ورنة عصفور وأيكة بـــــان
تعالى إلى ذكرى الصبا وجنونه	واحلام عيش من جد وأمـــان
فكم قبلة.. يا ليل فى ميعة الصبا	وقبل الهوى ليست بذات معان

وخلال ذلك انتقل شوقى إلى داره التى خلع عليها اسم "كرمة ابن هانئ" على ضفاف النيل بالجيزة ، وجعلها كعبة الشعر الرصين، وفيها قدم للعربية فيضا عظيما من الشعر فكم شهدت "كرمه ابن هانئ" من أمسيات مبهجة واحتفالات حيث يجتمع الأدباء والشعراء وعلى رأسهم حافظ ابراهيم وخليل مطران ينشدان وسط طرب الحاضرين، وإذا ما تصادف

وجود أديب كبير من أدباء الشرق أو الغرب فى القاهرة دعى إلى الكرمة يضاف إلى ذلك أن شوقى قدم للغناء الشرقى فيضا من شعره الجميل فوجدت فيه أم كلثوم معينا سلسبيلا فغنت وأطربت "نهج البردة" وقصائد مدح الرسول وكذلك فعل محمد عبد الوهاب فى مجال الحب والغزل.

أما عن علاقة أمير الشعراء بمطرب الأجيال محمد عبد الوهاب فقد بدأت عام ١٩٢٤ حيث اصطحب عبد الوهاب شوقى إلى باريس ثلاث مرات وأعجب بصوته، وتحمس له وأخذ يمهد له طريق الشهرة واللمعان فقدمه إلى الإذاعة المصرية الناشئة، وكان حريصا على أن تظهر صوره وأخباره باستمرار فى المجلات الفنية والأدبية، وسرعان ما ظهر عبد الوهاب كمطرب للأمراء والملوك، ومشاهير الرجال، واكتسب شهرة أكثر مما كان يمكن أن يحققه فى الفرق الموسيقية التى كان يعمل بها قبل التعرف على "شوقى.

وخلال ذلك حدثت معركة أدبية شديدة بين "شوقى" من جانب وخصومه من الجانب الآخر، لدرجة أن الكاتبين الكبيرين "عباس العقاد" و"ابراهيم المازنى" اصدرا كتاب "الديوان" وبه نقد شديد وهجوم وتجريح لشوقى وشخصه وحياته وتاريخه ، وانقسمت الأوساط الأدبية والصحفية إلى فريقين ، فريق يدافع عن أمير الشعراء "شوقى" ويهاجم "العقاد" و"المازنى" والآخر يهاجم شوقى ويشيد بالعقاد والمازنى، ولما كان شوقى معجبا بعبد الوهاب وكثير الإشادة به، فإن عبد الوهاب قبح فى نظر خصوم "شوقى" ولما كان عبد الوهاب يسمى "البلبل الصغير" كان خصوم "شوقى" يقولون إنه "الغراب الصغير" بل إن "المازنى" كان يهاجم عبد الوهاب فى جلساته الخاصة قائلا: هذا الولد صدره ضيق ولا يصلح أن

يكون مغنيا ولكن يصلح أن يكون مريضا، كان "المازنى" يقول ذلك وهو لم يسمع عبد الوهاب بعد ولذلك فان أحد أصدقاء ومحبى عبد الوهاب أقام فى داره حفلا دعا إليه العقاد والمازنى، وغنى عبد الوهاب فى الحفل، وأبدى العقاد على الفور إعجابه بصوت عبد الوهاب . وقال كلمته المشهورة: " صوته جميل" ولا عيب فيه إلا إعجاب شوقى به" ثم سئل: نريد أن نعرف بكل صراحة رأيك فى عبد الوهاب؟ فأجاب: صوته قوى وعذب وجذاب، واستعداده الفنى عظيم.. ثم قيل له فى تساؤل: هل تمنعك خصومتك لشوقى من قول كلمة حق عن عبد الوهاب؟ أجاب العقاد: بالطبع لا.. وسأنظم فيه قصيدة ونظم العقاد أبياتا يقول فيها:

إيه عبد الوهاب إنـــك شاد	يطرب السمع الحجا والفؤادا
قـــد سمعناك ليلة فعلمنـــــا	كيف يهوى المعذبون السهادا
بارك الله فى حياتـــك للفن	وأبقـــــــــاك للمحبين زادا

ولقد سعد شوقى بما كتبه العقاد عن عبد الوهاب خاصة أن حبه له كان جارفا وقويا.

وعلى أى حال فقد استمر شوقى فى إبداعاته الشعرية والمسرحية، وطبقت شهرته الآفاق فزاره عام ١٩٢٦ شاعر الهند "طاغور" والعديد من أعلام الأدب والسياسة والفكر واختير فى عام ١٩٢٧ عضوا فى مجلس الشيوخ.

وفى ابريل من عام ١٩٢٧ وبعد أن أصدر شوقى الطبعة الثانية من الشوقيات شهدت دار الأوبرا مهرجانا ضخما لتكريم شوقى حيث أقامت له الهيئات الأدبية وأدباء الوطن العربى حفلا كبيرا شاركت فيه الدول العربية بمندوبيها فكان من الشام محمد كرد على، ومن لبنان شكيب أرسلان ومن

فلسطين امين الحسينى ومن بلجيكا الأديب "فندنبرج" ومن مصر "حافظ ابراهيم" و"محمد حسين هيكل" وتمت مبايعة شوقى أميرا للشعر والشعراء، وقد حضر هذه المناسبة سعد زغلول بوصفه زعيما للأمة، ونهض شاعر النيل حافظ ابراهيم ينشد قصيدته الشهيرة فى مدح شوقى:

أمير القوافى قد أتيت مبايعا   وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

وبذلك استطاع شوقى عن جدارة واستحقاق ان يصبح أبرز شعراء جيله ووصل إلى قمة شامخة لقد رأى أن الفن موهبة، وان الموهبة لا يصقلها الا العلم والثقافة والاطلاع. وقد رد شوقى على الشعراء الذين بايعوه بأمارة الشعر قائلا:

أنمـــا أظهـــروا يد الله عنـــدى   وأذاعوا الجميل من إحسانه
ما الرحيق الذى يذوقون من كرمى   وان عشت طائفا بدنانـــه
وهبـــونى الحمام لذه سجـــــع   أين فضل الحمام من تحنانه
وتر فى اللهاة ما للمغنـــــى   من يد من صفائه وليانـــه

واستمر شوقى يواصل العطاء، وكان فى السنين الأخيرة من حياته يعكف على قراءة القرآن الكريم وكتب الحديث ، وفى ١٤ أكتوبر ١٩٣٢ صعدت روحه إلى بارئها ، وكان وقع وفاته فاجعا فى نفوس عارفيه وعشاق فنه ، ففقدت قيثارة الأدب بفقده الشاعر المبدع والناثر البليغ والمسرحى النابه والوطنى العظيم.

الفصل الثانى

أحمد شوقى شاعر الوطنية

إن الظروف التى أحاطت بشوقى منذ بداية حياته جعلته يعيش فى بوتقة الأحداث، وجعلت عبقريته الشعرية تقترن بشعوره الوطنى ، فعندما نشأ وترعرع كانت مصر يتنازعها ثلاث سلطات أحدهم سلطة الاحتلال البريطانى، والثانية سلطة الخديو والأخيرة سلطة السيادة العثمانية، ولما كان شوقى يعادى الإنجليز ويمقت الاحتلال الذى عصف باستقلال بلاده فقد وقف بجانب الخديوى الذى كان فى بداية عهده يناوئ الاحتلال، ويساند الزعيم الوطنى مصطفى كامل فى مواقفه ضد الإنجليز، وكان معجبا بدوره الوطنى، كما وقف بجانب السيادة العثمانية حيث رأى فى الخلافة الإسلامية رمزا للوحدة بين المسلمين، وكان اتجاه شوقى فى العديد من الأحيان متمشيا مع اتجاه مصطفى كامل والحزب الوطنى ولما قامت الحرب العالمية الأولى وَأُعْلِنَتْ الحماية البريطانية على مصر انفصل عن الخديوى بعد عزله، وتحرر من المنصب الحكومى، فزادته الحرية قوة وتحليقا فى سماء الشعر مما أدى إلى استهدافه لاضطهاد السلطات البريطانية، ولما تحرك الشعب وقامت ثورة ١٩١٩ للمطالبة بجلاء القوات البريطانية لم يكن شوقى مقيما فى مصر وقتها حيث كان منفيا فى أسبانيا حتى أواخر ١٩٢٠، ولما عاد إلى مصر مجد الثورة وانفعل بها كما تعرض لتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وما ترتب عليه من وضع دستور ١٩٢٣ وإقامة حياة نيابية ، وبلغ شعره الوطنى ذروته وتغنى بالوطنية، وكان للحوادث الكبرى التى وقعت فى مصر صداها فى شعره الوطنى.

ومن أبرز قصائد شوقى الوطنية نذكر قصيدته فى ذكرى دنشواى ووصفه المؤثر لتلك المأساة فقال:

يا دنشواى على رباك سـلام ... ذهبـت بأنس ربوعـك الأيام

شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا ... هيهـات للشمل الشتيت نظـام

مرت عليهم فى اللحود أهلة ... ومضى عليهـم فى القيود العام

كيف الأرامل فيك بعد رجالها ... وبـأى حال أصبـح الأيتام؟

عشرون بيتا أقفرت وانتابهـا ... بعد البشاشة وحشة وظـلام

ياليت شعرى فى البروج حمائم ... أم فى البروج منية وحمـام؟

(نيرون) لو أدركت عهد (كرومر) ... لعـرفت كيف تنفذ الأحكـام؟

******

نوحى حمائم دنشواى وروعى ... شعبا بوادى النيل ليس ينـام

إن نامت الأحياء حال بينـه ... سحرا وبين فراشه الأحـلام

متوجع يتمثل اليوم الـذى ... ضجت لشدة هوله الأقـدام

السوط يعمل والمشانق أربـع ... متوحدات والجنـود قيـام

والمستشار إلى الفظائع ناظـر ... تدمى جلود حوله وعظـام

فى كل ناحية وكل محلـة ... جزعا من الملأ الأسيـف زحام

وعلى وجو الثاكلين كآبـة ... وعلى وجوه الثاكـلات رغـام

ولما توفى مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ رثاه شوقى بقصيدته الخالدة التى ترجم فيها عن شعوره بالحزن والألم بآيات بينات تجلت فيها حكمة الشعر وقوة الوطنية وروعة البيان، حيث قال:

المشرقان عليـك ينتحبـان | قاصيهما فى مأتـم والدانـى
يا خادم الإسلام أجـرر مجاهـد | فى الله من خـلد ومن رضـوان
لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى | فى الزائريـن وروع الحرمـان
السكة الكبرى حيـال رباهمـا | منكوسة الأعـلام والقضبـان
لم تألها عند الشـدائد خدمـة | فى الله والمختـار والسلطـان
يا ليت مكة والمدينـة فازتـا | فى المحفلين بصوتـك الرنـان
ليرى الأواخر يوم ذاك ويسمـعوا | ما غاب من قس ومن سحبـان[1]
جار التراب وأنـت أكرم راحـل | ماذا لقيت من الوجـود الفانـى؟

وقال يشيد بأخلاق الفقيد:

إن كـان للأخلاق ركن قائـم | فى هذه الدنيا فأنت البانـى
بالله فتش عن فؤادك فى الثـرى | هـل فيه آمال وفيـه أمانـى
وجدانك الحى المقيـم على المدى | ولرب حـى ميت الوجـدان

وقال مخاطبا مصطفى كامل:

يا طاهر الغدوات والروحات والـ | خطرات والإسرار والإعـلان
هـل قام قبلك فى المدائـن فاتـح | غاز بغير مهنـد وسنـان؟
يدعـو إلى العلم الشريف وعنـده | أن العلـوم دعائـم العمـران

وقال فى وصف جنازة الزعيم مصطفى كامل:

لفـوك فى علم البـلاد منكسـا | جزع الهلال على فتى الفتيـان
ما أحمـر من خجل ولا من ريبة | لكنمـا يبكى بدمع قانـى
يزجون نعشك فى السناء وفى السنا | فكأنما فى نعشـك القمـران
وكأنه نعش (الحسين) " بكربـلا" | يختال بين بكى وبين حنـان

---

(١) قس وسحبان خطيبان من أبلغ الخطباء فى العصر الجاهلى.

فـــى ذمة الله الكريم وبـــــــره | ما ضم من عرف ومن إحســـان
ومشــــى جلال الموت وهو حقيقة | وجلالك المصدوق يلتقيـــــــان
شقت لمنظرك الجيوب عقائـــل | وبكتك بالدمع والهتون غوانــــى
والخــلق حولك خاشعون كعهدهم | إذ ينصتون لخطبة وبيــــــان
يتســـاءلون بأى قلب ترتقــــــى | بعد المنابر أم بأى لســـــــــان
فــلو إن أوطانا تصور هيكــــلا | دفنوك بين جوانح الأوطـــــــان
أو كان يحمل فى الجوارح ميــت | حملوك فى الأسماع والأجفـــان
أو صيغ من غمر الفضائل والعلى | كفن لبست أحاسن الاكفــــــان
أو كان للذكر الحكيم بقيــــــــة | لم تات بعد رثيت فى القـــرآن

وقال يصفه فى مرضه الأخير:

ولقـــد نظرتك والردى بك محدق | والـــداء ملء معالم الجثمـــان
يبغــــى ويطغــــى والطبيب مضلل | قنط وساعات الرحيل دوائـــى
ونـــواظر العـــواد عنــك أمالهــا | دمع عالج كتمة وتعانـــــــــى
تملـــى وتكتب والمشاغـــل جمـــة | ويداك فى القرطاس ترتجفـــان
فهششــــت لى حتى كأنـــك عائدى | وأنا الذى هد السقام كيانـــــى
ورأيت كيف تموت آســـاد الشرى | وعرفت كيف مصارع الشجعان
ووجـــدت فى ذاك الخيال عزائما | ما للمنون بدكهـــن يـــــــدان

****

وجعلت تسألنى الرثاء فهاكـــــــه | من أدمعى وسرائرى وجنانى
لولا مغالبة الشجون لخاطـــــرى | لنظمت فيك يتيمة الازمــــان
وأنا الذى أرثى الشموس إذا هوت | فتعود سيرتها مــــــن الدوران

****

قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى وتجـــــــــل فوق النيرات مكانى
ماذا دهانى يوم بنت فعقنـــــــــى فيك القريض وخاننى إمكانـــــــــى
هون عليك فلا شمات بميـــــــت إن المنية غاية الانســـــــــــان
من للحسود بميتة بلغتـــــــــها عزت على كسرى أنو شــــــروان
عوفيت من حرب الحياة وحربهـــا فهل استرحت أم استراح الشـــانى

وقال فى ختام القصيدة يذكر فضل مصطفى على مصر:

يا صب مصـــر ويا شهيد غرامها هـــذا ثرى مصر فنـــم بأمـــــان
اخـــلع على مصر شبابك غاليــــا والبــس شباب الحور والولــــدان
فلعــل مصرا من شبابك ترتـــدى مجـدا تتيه به على البلـــــــدان
فـــلو أن بالهـــرمين من عزماتـــه بعـــض المضاء تحرك الهرمــــان
علمــت شبان المدائـــن والقـــرى كيـــف الحيـــاة تكون فى الشبـــان
مصر الأسيفـــة ريفها وصعيـــدها قبـــر أبر على عظامـــك حانـــى
أقسمـــت أنك فى التراب طهـــارة مـــلك يهـــاب سؤاله الملكـــان

وكان شوقى لا يتوقف عن ذكر مصطفى كامل بعد وفاته:

فمن ذلك قصيدته التى نظمها سنة ١٩٢٥ لمناسبة ذكراه بعنوان (شهيد الحق) تناول فيها ما أصاب البلاد من انقسام وتضارب وتناحر، ثم انتقل من ذلك إلى ذكرى مصطفى كامل، فوفاه حقه من التكريم، **قال فى مطلعها:**

إلام الخـــلف بينكمو إلامــــــا؟ وهذه الضجـــة الكبرى علاما؟
وفيم يكيـــد بعضكـــــم لبعض وتبـــدون العـــداوة والخصاما؟
واين الفوز؟ لا مصـــر استقرت على حال ولا الســـودان داما

إلى أن قال:

ولينا الأمر حزبا بعد حـــــزب   فلم نك مصلحين ولا كرامـــــا
جعلنا الحكم تولية وعـــــزلا   ولم نعد الجزاء والانتقامـــــا
وسسنا الأمر حين خلا إلينـــــا   بأهواء النفوس فما استقامـــــا

وقال ذاكرا محاسن الزعيم:

شهيد الحق قم تره يتيمـــــا   بأرض ضيعــت فيها اليتامــى
أقام على الشفاه بها غريبـــــا   ومر على القلــوب فما أقامــا
سقمت فلم تبت نفس بخيـــــر   كأن بمهجــة الوطن السقامـــا
ولم أر مثل نعشـــك إذا تهادى   فغطى الأرض وانتظم الأنـــاما
تحمل همة وأقل دينـــــا   وضــم مروءة وحوى زمـــاما
وما أنساك فى العشرين لمـــا   طلعت حيالهـــا قمرا تمامـــا
يشار إليك فى النادى وترمـــى   بعينى من أحــب ومن تعامــى
إذا جئت المنابر كنت (قســـا)   إذا هو فى عكاظ علا السنامـــا
وأنت ألذ للحق اهتـــزازا   وألطــف حين تنطقـــه ابتسامـــا
وتحمل من أديم الحق وجهـــا   صراحـــا ليس يتخـــذ اللثامـــا

أتــذكر قبــل هــذا الجيل جيلا   سهـــرنا عن معلمهم وناما؟
مهــار الحــق بغضنـــا إليهـــم   شكيـــم القيصرية واللجامـــا
لــــواؤك كان يستقيــم بجــام   وكان الشعــر بين يدى جــاما
مـــن الوطنيـــة استبقـــوا رحيقا   فضضنا عن معتقهـــا الختامـــا

غرسنا كرمها فزكا أصولا بكل قراءة وزكاء مداما

جمعتهمو على نبرات صوت كنفخ الصور حركت الرجاما[1]

****

لك الخطب التى غص الأعادى بسورتها وساغت للندامى[2]

فكانت فى مرارتها زئيرا وكانت فى حلاوتها بغاما[3]

****

بك الوطنية اعتدلت وكانت حديثا من خرافة أو مناما

بنيت قضية الأوطان منها وصيرت (الجلاء) لها دعاما

وله قصيدة فى ذكرى مصطفى كامل سنة ١٩٢٦ قال فيها:

لم يمت من له أثر وحياة من السير

ادعه غائبا وإن بعدت غاية السفر

آيب الفضل كلما آبت الشمس والقمر

رب نور متمم قد أتانا من الحفر

إنما الميت من مشى ميت الخبر والخبر

من إذا عاش لم يفد وإذا مات لم يضر

ليس فى الجاه والغنى منه ظل ولا ثمر

قبح العز فى القصور إذا ذلت القصر

******

أعوز الحق ذائد وإلى (مصطفى) افتقر

---

(١) بمعنى القبور

(٢) بمعنى الاصدقاء

(٣) صوت الظبى

وتمـــنت حيـــاضــــة ... هبـــة الصـــارم الذكر

الذى ينفــذ المـــــدى ... والـــذى يركــب الخطــر

أيهـــا القوم عــظمــوا ... واضـــع الأس والحجـــر

أذكــــروا الخطبة التـــى ... هى من آية الكبــــــر

لم يــــر النـــاس قبلهـــا ... منبــرا تحــت محتضــر

لســــت أنســـى لواءه ... وهــــو يمشى إلى الظفر

حشــــــر النـــاس تحته ... زمــــرا إثرهـــا زمــــر

وترى الحـــق حـــوله ... لا ترى البيـــض والسمر

كلمـــا راح أو غــــدا ... نفخ الروح فى الصــــور

*****

يا أخـــا النفس فى الصبـــا ... لـــذة الـــروح فى الصغـــر

وخــليلا ذخرتـــــــــه ... لم يقــــوم بمدخــــــر

حــل بينـــى وبينـــــــه ... فـــى فجـــاءاته القــــدر

كيف أجــزى مـــــودة ... لم يشــب صفوها كـــــدر

غير دمـــع أقولـــــــه ... قــل فـــى الشـــأن أو كثــر

وفــــــؤاد معلــــــــل ... بالخيــــــــالات والذكــر

لم ينــــم عنك ساعـــة ... فى الأحـــاديــث والسمــر

قم تر القــــوم كتلــــة ... مثــل ملـمومـــة الصخــر

جـددوا ألفـــة الهـــوى ... والإخـــــاء الذى شطــــر

ليس للخـــلف بينهـــم ... أو لأسبــابــــــه أثــــر

ألفهـــم روائـــــح ... غـــاديـــات من الغيـــــر

وصحوا من منـــــوم ... وأفاقـــــوا من الخـــــدر

أقبـلوا نحو حقهــــــم ... مــا لهم غيـــــره وطــر
جعـــلوه خليـــــــة ... شــرعوا دونها الإبـــــر
وتواصــــوا بخطـــة ... وتــداعـــوا لمؤتمــــر
وقصارى أولى النهـــى ... يتلاقـــون فى الفكــــر
آذنونــــا بموقـــــف ... من جلال ومن خطـــــر
نسمع الليث عنــــــده ... دون آجامـــــــه زأر
قل لهم فى نديهـــــم ... مصر بالبــــاب تنتظـر

إن حب شوقى للوطن يتمشى مع معظم قصائده، التى نشرها فى ديوانه، وله فوق ذلك أبيات بلغ فيها حبه للوطن درجة التقديس والعبادة مما يجعلها تسير مسرى الحكم والأمثال، على تعاقب السنين والأجيال، وتبعث فى نفوس المواطنين روح الإخلاص العميق للوطن والتفانى فى خدمته.

كقوله سنة ١٩٢٠ بعد عودته إلى مصر من منفاه:

ويا وطنى لقيتك بعد يأس ... كأنى قد لقيت بك الشبابا
ولو أنى دعيت لكنت دينى ... عليه اقابل الحتم المجابا[١]
أدير إليك قبل البيت وجهى ... إذا فهت الشهادة والمتابا

ففى هذه الأبيات يربط شوقى الوطن بالدين ويدير وجهه إلى الوطن قبل الكعبة عندما يلقى ربه.

وقوله سنة ١٩٢٤ مخاطبا الشباب:

وجه الكنانة ليس يغضب ربكم ... ان تجعلوه كوجهه معبودا
ولوا إليه فى الدروس وجوهكم ... وإذا فرغتم . فاعبدوه هجودا

---

(١) بمعنى الموت

إن الذى قسم البلاد حبا كمو بلدا كأوطان النجوم مجيـــــدا
قد كان – والدنيا لحود كلها للعبقــرية والفنون مهـــــودا

وقوله وهو فى منفاه:

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

أى أنه لو شغل عن الوطن بجنة الخلد وسكنها، لبقيت نفسه تهفو إلى الوطن وتنزع إليه.

وقوله فى قصيدته سنة ١٩٢٦ فى نكبة دمشق من الاستعمار الفرنسى:

وللأوطان فى دم كل حر يد سلفت ودين مستحق
وللحــرية الحمراء باب بكل يد مضرجة تــدق

وقوله:

لو تلوماها أليست حرة وهوى الأوطان للأحرار دين

وقال سنة ١٩٠٤:

أحبك مصر من أعماق قلبى وحبــك فى صميم القلب نــام

وبلغ حبه لمصر أن جعلها كعبة أشعاره قال:

وإنـــى لغريـــد هذا البطاح تغـــــذى جناهـــا وسلسالهـــا
ترى مصر كعبة أشعاره وكـــل معلقـــــــة قالهـــــــا

وعندما قامت ثورة ١٩١٩ التى أعادت للمجتمع المصرى وجهه الحقيقى **قال فى قصيدة له بعنوان (الحرية الحمراء) يمجد فيها ثورة ١٩١٩:**

يوم البطـــولة لو شهدت نهاره لنظمت للأجيال ما لم ينظم
غبنـــت حقيقته وفات جمالهـــا باع الخيال العبقرى الملهم
لولا عوادى النفى أو عقبانـــه والنفى حال من عذاب جهنم

لجمعت ألوان الحوادث صورة مثلت فيها صورة المستسلم

وحكيت فيها النيل كاظم غيظة وحكيته متغيظا لم يكظـــم

دعت البلاد إلى الغمار فغامرت وطنية بمثقف ومعلـــم

ثارت على الحامى العتيد وأقسمت بسواه جل جلاله لا تحتمى

*****

يوم النضال كستك لون جمالها حرية صبغت أديمك بالدم

تعلق شوقى بأهمية جلاء الانجليز عن مصر

ويبدو فى شعر شوقى مبلغ تعلقه بالجلاء، وإيمانه به وهذا ولا ريب من فيض الوطنية التى يستلهم منها شعره.

قال فى سنة ١٩٢٤ يخاطب الشباب الذين أفرج عنهم بعد الحكم عليهم فى قضية المؤامرة الكبرى:

لمـــا بنى الله القضية منهمو قامت على الحق المبين عمودا

جـــادوا بأيام الشباب واشكوا يتجــاوزون إلى الحياة الجواد

طلبوا (الجلاء) على الجهاد مثوبة لم يطلبوا أجر الجهــاد زهيدا

والله : مـــا دون الجلاء ويومه يوم تسميــه الكنانــة عيـــدا

وجـد السجيـــن يدا تحطم قيده من ذا يحطـم للبــلاد قيـودا؟

وقال شوقى وهو يدعو إلى الجد والتضحية:

والمرء ليس بصادق فى قوله حتـى يؤيـد قولـه بفعاله

والشعب إن رام الحياة كبيرة خاض الغمار دما إلى آماله

وعندما نجح الإنجليز فى بث روح الفتنة بين المسلمين والأقباط بعد اغتيال بطرس غالى رئيس النظار قال شوقى فى قصيدة له فى رثاء بطرس غالى سنة ١٩١٠:

الحق أبلج كالصباح لناظـــــــــر   لو ان قوما حكموا الأحلامــــــــا
أعهدتنا والقبط إلا أمـــــــــــة   للأرض واحدة تروم مرامـــــــا
نعلى تعاليم المسيح لأجلهــــــــم   ويوقرون لأجـلنا الإسلامــــــا
الديــن للديان جــل جلالــــــه   لو شاء ربك وحد الأقوامــــــا
ياقوم بان الرشد فاقضوا ما جــرى   وخذوا الحقيقة وانبذوا الأوهامـــا
هذى ربوعكــم وتــلك ربوعنـــا   متقـــابليــن نعـــالج الأيامـــا
هذه قبـــوركــم وتلك قبورنــــا   متجـــاورين جمـــاجما وعظامـــا
فبحرمة الموتى وواجب حقهـــــم   عيشوا كما يقضى الجوار كرامـــا

وقال شوقى فى قصيدة أخرى له فى هذا المعنى :

تعالوا عسى نطوى الجفاء وعهده   وننبــذ أسبـــاب الشقاق نواحيـــا
ألم تــك (مصر) مهدنا ثم لحدنا   وبينهمــــا كانت لكـــل مغانيـــا
الم تك من قبل (المسيح بن مريم)   و(موسى) و (طه) تبعد النيل جاريا
فهـــلا تساقينا على حبـــه الهوى   وهـــلا فديناه ضفافـــا وواديـــا
وما زال منكـــم أهل ود ورحمة   وفى المسلمين الخير ما زال باقيـــا
فلايئنكم عن ذمة قتل (بطرس)   فقدما عرفنا القتل فى الناس فاشيـــا

كما قال مخاطبا الشباب فى قصيدة يستحثهم فيها على العلم والجهاد من أجل مصر:

يا شبـــاب الغـــد وأبناء الفدى   لكــــم أكرم وأعزز بالفـــداء
هل يمـــد الله لى العيش عسى   أن اراكـــم فى الفريق السعداء
وأرى تاجـــكم فـــوق السمـــا   وارى عـــرشكـــم فـــوق ذكاء
من رآكم قال مصر استرجعت   عزها فى عهد (خوفو) و (مناء)
أمـــة للخـــلد ما تبنـــى إذا   ما بنــــى الناس جميعا للعفاء

إنمـــا مصر إليكـــم وبكم	وحقـوق البر أولى بالقضاء
عصـــركم حـــر ومستقبلكـــم	فى يميـــن الله خير الأمناء
لا تقولـــوا حطنـــا الدهر فما	هـــو إلا من خيـــال الشعـــراء
هل علمتهـــم أمة فى جهـــلها	ظهرت فى المجد حسناء الرداء
باطـــن الأمة من ظاهرهـــا	إنمـــا السائل من لون الإناء
فخذوا العلـــم على أعلامـــه	واطلبوا الحكمة عند الحكماء
وأقرأوا تاريخكم واحتفظـــوا	بفصيـــح جاءكم من فصحاء
أنزل الله علـــى ألسنهـــــم	وحيه فى أعصر الوحى الوضاء
واحكمـــوا الدنيا بسلطان فما	خلقـــت نضـــرتها للضعفـــاء
واطلبوا المجد على الأرض فإن	هى ضاقت فاطلبوه فى السماء!

وقال شوقى عن الدستور والحياة الدستورية السليمة

شر الحكومة أن يساس بواحد	فى المـــلك أقوام عـــداد رمـــاله

وقال فى قصيدة له عن (الأزهر):

وتفيأوا الدستور تحت ظلالـــــــــه	كنفا أهش من الرياض وأنضرا
لا تجعلوه هوى وخلفا بينكـــــــــم	ومجـــر دنيا للنفـــوس ومتجرا
اليوم صرحت الأمور فأظهـــــرت	ما كان من خدع السياسة مضمرا
قد كان وجه الرأى ان نبقى يـــــدا	ونـــرى وراء جنودها انجلتـــرا
فإذا أتتنا بالصفوف كثيـــــــــرة	جئنـــا بصف واحد لن يكســـرا

وقال من قصيدة له فى عيد الجهاد:

وبالدستور وهو لنا حيـــــــــاة	نـــــرى فيه السلامة والفلاحـــــا
أخذناه على المهج الغوالـــــــــى	ولم ناخذه نيلا مستماحـــــــــــــــا

بنينا فيه من دمع رواقـــــــا ومن دم كل نابتة جناحـــــــا

وقال عن الحياة الدستورية السليمة:

إذا سلم الدستور هان الذى مضى وهان من الأحداث ما كان آتيا

الأكل ذنب لليالى لأجلـــــه سدلنا عليه صفحنا والتناسيا

وقال فى قصيدة يدعو الشباب إلى إنكار الذات:

قالوا أتنظم للشباب تحيـــــة تبقى على جيد الزمان قصيدا

قلت الشباب أتم عقد مآثـــر من أن أزيدهمو الثناء عقودا

قبلت جهودهم البلاد وقبلـــت تاجا على هاماتهم معقـــودا

خرجوا فما مدوا خناجرهـم ولا منوا على أوطانهم مجهـودا

خفى الأساس عن العيون تواضعا من بعد ما رفع البناء مشيدا

أما عن حكم شوقى وعظاته فتنساب فى شعره الـذى يخاطـب بـه مواطنيه ويبصرهم بعبر التاريخ وعظات الحوادث، فيقول:

قال عن جلال الملوك وأنه إلى زوال ولا يبقى إلا جلال الخلود:

جلال الملك أيام وتمضـــى ولا يمضى جلال الخالدينـا

وقال عن الخلود للعمل الصالح:

من سر أن لا يموت فبا لعلى خلد الرجال وبالفعال النابه

ما مات من حاز الثرى آثاره واستولت الدنيا على آدابـه

قل للمدل بما له وبجاهـــه وبما يحل الناس من أنسابه

هذا الأديم يصد عن حضاره وينام ملء الجفن عن غيابه

إلا فتى يمشى عليه مجــددا ديباجتيه معمــرا لخرابــه

وقال عن أهمية العدل كأساس للملك:

والعدل فى الدولاب أس ثابت   يفنى الزمان وينقذ الأجيـــالا

وعن فلسفة الحياة قال من قصيدته فى رثاء مصطفى كامل:

دقات قلب المرء قائلة له   إن الحياة دقائق وثـــــــوان

ومن قوله فى ذكرى كارنارفون مكتشف كنوز توت عنخ آمون:

فى الموت ما أعيا[1]وفى أسبابه   كل امرئ رهن بطى كتابه

إن نام عنك فكل طب نافـــــع   أو لم ينم فالطب من أذنابـــه

إلى أن قال منوها بفضل كارنارفون فى اكتشافاته الأثرية:

أفضى إلى ختم الزمان ففضه   وحبا إلى التاريخ فى محرابه

وطوى القرون القهقرى حتى أتى   فرعون بين طعامه وشرابـــه

ومن قوله فى العظة والاعتبار حين سقطت أدرنة وكانت من أمهات المدن الإسلامية فى مقدونية و غلبها البلغار سنة ١٩١٢:

يا أخت أندلس عليك سلام   هوت الخلافة عنك والإســـلام

إلى أن قال يندد بسياسة الترك:

رفعوا على السيف البناء فلم يدم   ما للبناء عـــلى السيوف دوام

أبقى الممالك ما المعارف اســـه   والعدل فيه حـــائط ودعـــــام

إن الغـــرور إذا تملك أمـــــــة   كالزهر يخفى الموت وهو زؤام

وحول غلظة الانجليز مع المصريين قال فى قصيدة أثناء انعقاد مؤتمر لوزان مشيرا إلى سوء معاملة الإنجليز مع مصر لأنها لم يكن لها من القوة ما تسترد به حقها:

---

(١) ما أعياه أى ما أعجز عن إدراك حقيقته

أتعلم أنهم صلفوا أو تاهـــــــو   وصدوا الباب عنا موصدينــــــا
ولو كنا نجر هناك سيفــــــــاً   وجدنا عندهم عطفاً ولينــــــــا
سيقضى (كرزن) بالأمر عنـــا   وحاجات (الكنانة) ما قضينــــا

وقال فى هذا المعنى:

يا طير والأمثال تضـــــــــ   رب للبيـــت الأمثــــل
دنيـــاك من عاداتهــــــا   ألا تكـــــــون لأعـــزل

وحول رأيه فى نظم الحكم، وأهمية أن تحكم الشعوب نفسها قال ينبه الملوك إلى قوة الشعوب ويدعوهم إلى النزول على حكمها:

إن ملكــت النفوس فابغ رضاها   فلها ثورة وفيها مضــــــــاء
يسكن الوحش للوثوب من الأسر   فيكف الخلائــق العقـــــلاء؟
يحســب الظالمون أن سيســودو   ن وأن لن يؤيـــد الضعفـــاء
والليالـــى جوائر مثلمــا جـــا   روا وللدهر مثلهم أهـــــــواء

وقال يبشر بحكم الشعوب وزوال حكم الفرد:

زمان الفرد يا فرعون ولــــى   ودالت دولة المتجبرينــــــــــا
وأصبحت الرعاة بكــل أرض   على حكم الرعية نازلينـــــــا

وقال يندد بالمستبدين:

المستبد يطاق فى ناووســــــه   لا تحت تاجيه وفوق وثابــــه[1]
والفرد يؤمن شره فى قبـــــره   كالسيف نام الشر خلف قرابـــه[2]

وقال فى هذا المعنى يخاطب توت عنخ آمون:

(١) الناووس ، القبر ، والوثاب : السرير
(٢) قراب السيف : غمدة

قسما بمن يحيى العظـــــــام ... م ولا أزيـــدك من يميــــن
لو كان من سفر أيـــــــــــا ... بك أمس أو فتـــــح مبيــن
لرأيت جيلا غيـــر جيلـــك ... بالجبابــــر لا يديـــــــن
ورأيت محكومين قـــــــــد ... نصبوا وردوا الحاكميــــن
روح الزمـــان ونظمــــه ... وسبيـــله فى الآخريــــن
إن الزمـــان وأهلــــــــه ... فرغا من الفــــرد اللعيــن
فإذا رأيت مشـــايخـــــا ... أو فتية لك ساجديـــــن
لاق الـــزمـــان تجدهمــــو ... عن ركبـــه متخلفيـــن
هم فى الأواخـــر مولـــــدا ... وعقولهـــم فى الأوليـــن

وفى مسرحية (مصرع كليوباتره) تحدث على لسان (حابى) موضحا أن الشعب قد ينخدع فقال:

إسمع الشعب ديـــــون ... كيف يوحـــون إليه
ملأ الجـــو هتافــــا ... بحياتـــى قاتليــــه
أثر البهتان فيــــــه ... وانطلى الزور عليــــه
يا له من ببغـــــــاء ... عقله فى أذنيــــــه

وقال سنة ١٩٢٦ حينما اجتمع المؤتمر الوطنى يوم ١٩ فبراير من تلك السنة وائتلفت فيه الأحزاب بعد توحيد الصفوف:

صرح عل الوادى المبارك ضاحى ... متظـــاهر الأعـــلام والأوضاح
ضــــافى الجلالة كالعتيق مفصل ... ساحات فضل فى رحاب سماح
وكأن رفرفـــة رواق من ضحـــى ... وكان حائطـــه عمود صبـــاح
الحـــق خلف جناح استـــذرى بـــه ... ومراشد السلطان خلف جنـــاح

هو هيكل الحرية القانـــــى له	ما للهياكل من فدى وأضـــاح
يبنى كما تبنى الخنادق فى الوغى	تحت النبال وصوبها السحـــاح
ينهار الاستبداد حول عراصـــه	مثل انهيار الشرك حول (صلاح)
ويكب طاغوت الأمور لوجهـــه	متحطم الأصناف والأشبــــاح

****

هو ما بنى الأعزال بالراحــات أو	هو ما بنى الشهـــــداء بالأرواح
أخذنه (مصر) بكل يوم قاتــــم	ورد الكواكب أحمر الإصبـــــاح
هبت سماحا بالحياة شبابهـــــا	والشيب بالأمارق غير شحـــاح
ومشت إلى الخيل الدوارع وانبرت	للظافر الشاكى بغير ســــلاح
وقفات حق لم تقفها أمـــــــة	إلا انثنت آمالها بنجـــــــاح
وإذا الشعوب بنوا حقيقة ملكهـــم	جعلوا المآتم حائط الأفـــــراح

إلى أن قال فى توحيد الصفوف:

بشرى إلى الوادى تهز نباتـــــه	هز الربيع مناكـــــــب الأدواح
تسرى ملمحة الحجول على الربـــى	وتسيل غرتها بكل بطـــــــاح
التامت الأحزاب بعد تصـــــدع	وتصافت الأقلام بعد تـــــلاح
سحبت على الأحقاد أذيال الهـــوى	ومشى على الضغن الوداد الماحـــى
وجرت أحاديث العتاب كأنهـــا	سمر على الأوتاد والأقـــــداح
ترمى بطرفك فى المجامع لا ترى	غير التعانق واشتبـــــاك الراح

وقال فى سنة ١٩٢٠ من قصيدة له فى الاحتفال بإنشاء بنك مصر الذى بناه طلعت حرب يدعو شوقى إلى الاكتتاب فى رأس مال البنك وينوه بفضل المال فى نهضة الأمم فيقول:

قف بالممالك وانظر دولة المال واذكر رجالا أدالوها باجمال

إلى ان قال:

يا طالبا لمعالى الملك مجتهـــــــدا خذها من العلم أو خذها من المال

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهـــــم لم يبن ملك على جهل وإقـــلال

سراة مصر عهدنا كم إذا بسطـــت يد الدعاء سراعا غير بخـــال

تبين الصدق من بين الأمور لكـــم فامضوا إلى الماء لا تلووا علــى الآل

لا يذهب الدهر بين الترهات بكـــم وبين زهر من الأحلام قتـــال

هاتوا الرجال وهاتوا المال واحتشـدوا رأيا لرأى ومثقالا بمثقـــال

هذا هو الحجر الدرى بينكمـــــو فابنوا بناء قريش بيتها العالـــى

آمال مصر إليها عالما طمحـــت هل تبخلون على مصر بآمـــال

فابنوا على بركات الله واغتنمـــوا ما هيأ الله من حظ وإقبـــال

وقال فى قصيدة أخرى:

الملك بالمال والرجال لم يبن ملك بغير مال

وقال فى قصيدة له فى احتفال أقامته نقابة الصحفيين:

لكل زمان مضى آيـــــــة وآية هذا الزمان الصحـــــف

لسان البلاد ونبض العبـــاد وكـــهف الحقوق وحرب الجنف[1]

تسير مسير الضحى فى البـــلاد إذا العلـــــم مزق فيها السدف

وتمشى تعلم فى أمـــــــة كثيرة من لا يخط الألـــــف

******

فيا فتية الصحف صبـــــرا إذا نبا الرزق فيها بكم واختلـــف

---

(١) بمعنى الظلم

فإن السعادة غير الظهــــــــور | وغير الثراء وغير التـــــــرف
ولكنها فى نواحى الضميـــــــر | إذا هو باللؤم لم يكتنـــــــف
ورموا النبوغ فمن نالـــــــه | تلقى من الحظ أسنى التحــــف
حمدنا بلاءكم فى النضـــــال | وأمس حمدنا بلاء السلـــــف
ومن نسى الفضل للسابقيـــن | فما عرف الفضل فيما عـــرف
أليس إليهم صلاح البنـــــاء | إذا ما الأساس سما بالغـــرف

وقال عن حنينه إلى الوطن عندما زاد حبه له وتعلقه به فى منفاه بالأندلس، وقد كان نفيه بأمر السلطة العسكرية البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٥ وبقى فى منفاه بعيدا عن الوطن نحو خمسة أعوام إلا قليلا، فازداد شعورا بلوعة الحزن على فراقه ، واستثار النفى الوطنية الكامنة فى نفسه، وأججت الغربة نارها، فانطلق يشدو بالحنين إلى الوطن.

وإلى جانب ذلك نظم قصيدة يعارض فيها الشاعر البحترى بقوله:

اختلاف النهار والليل ينســـى | أذكر لى الصبا وأيام انســـى
وسلا (مصر) هل سلا القلب عنهـا | أو أسا جرحه الزمان المؤســـى
كلما مرت الليالى عليـــه | رق والعهد فى الليالى تقســـى

إلى أن قال:

يا ابنة اليم[1] ما أبوك بخيـــل | ما له مولعا بمنع وحبـــس
أحرام على بلابلــــه الدو | ح حلال للطير من كل جنـــس؟
كل دار أحق بالأهـــل إلا | فى خبيث من المذاهب رجـــس

---

(١) يقصد السفينة

نفسى مرجل وقلبى شـــــــــراع   بهما فى الدموع سيرى وأرســـــى

واجعلى وجهك (الفنار) ومجــــرا   ك يد (الثغر) بين (رمل) و (مكس)

وطنى لو شغلت بالخلد عنـــــــه   نازعتنى إليه فى الخلد نفســـــــى

شهد الله لم يغب عن جفونـــــــى   شخصه ساعة ولم يخل حســـــــى

إلى ان قال فى الحنين إلى مصر:

لكن (مصر) وإن أغضت على مقة[1]   عين من الخلد بالكافور تسقينـــــا

على جوانبها رفت تمأمنــــــــــا   وحول حافاتها قامت رواقينــــــا

ملاعب مرحت فهيا مآربنــــــــا   وأربع أنست فيها أمانينــــــــــا

ومطلع لسعود من أواخرنــــــــا   ومغرب لجدود من أوالينــــــــا

بنا فلم نخل من روح يراوحنــــا   من بر مصر وريحان يغادينــــا

كأم موسى على اسم الله تكلفنــا   وباسمه ذهبت فى اليم تلقينــــا

ومصر كالكرم ذى الاحسان فاكهة   لحــاضريــن وأكواب لبادينــــا

يا سارى البرق يرمى عن جوانحنا   بعد الهــــدوء ويهمى عن مآقينا

لما ترقرق فى دمع السماء دمـــا   هاج البكا فخضبنا الأرض باكينا

إلى أن قال يخاطب مواطنيه:

إلى الذين وجدنا ود غيرهــــــم   دنيا وودهمو الصافى هو الدينــا

يا من نغار عليهم من ضمائرنــا   ومن مصون هواهم فى تناجينــا

ناب الحنين إليكم فى خواطرنـــا   فى النائبـــات فلم يأخذ بأيدينـــا

(١) بمعنى المحبة

إلى أن قال يشيد فى منفاه بعظمة مصر:

لم تنزل الشمس ميزانا ولا صعدت فى ملكها الضخم عرشا مثل وادينا

ألم تؤله على حافاتـــــــه ورأت عليه آباءها الغر الميامينـــــــــا؟

وهذه الأرض من سهل ومن جبـــل قبل (القياصر) دناها (فراعينــــــا)

ولم يضع حجرا بأن على حجـــــر فى الأرض إلا على آثار بانينــــــا

كأن (أهرام) مصر حائط نهضـــت به يد الدهر لا بنيان فانينـــــــــا

إلى أن قال فى تحية مصر وتشوقه إليها من منفاه:

أرض الأبوة والميلاد طيبهـــــــا مر الصبا فى ذيول من تصابينــــا

كانت محجلة فيها مواقفنـــــــــا غرا مسلسلة المجرى قوافينــــــا

فآب من كرة الأيام لاعبنــــــــا وثاب من سنة الأحلام لاهينــــــا

ولم ندع لليالى صافيا فدعـــــت بأن نغص فقال الدهر آمينــــــــا

لو استطعنا لخضنا الجو صاعقــة والبر نار وغى والبحر غسلينـــــا

سعيا إلى مصر نقضى حق ذاكرنا فيها إذا نسى الوافى وباكينـــــا

وقال يذكر والدته بحلوان وقد توفيت قبيل عودته:

كنـــز (بحلوان) عند الله نطلبه خير الودائع من خير المؤدينا

لو غـــاب كل عزيز عنه غيبتنا لم يأته الشوق إلا من نواحينا

إذا حمــــلنا لمصر أوله شجنا لم ندر أى هوى الأمين شاجينا

وقال أيضا فى منفاه يهتف بمصر وساكنيها:

يا ساكنى مصر إنا لا نزال علـــــى عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا

هلا بعثم لنا من ماء نيلكـــــــــم شيئا نبل به أحشاء صادينا

كل المناهل بعد النيل آسنـــــــــة ما أبعد النيل إلا عن أمانينا

وقد بعث شوقى بهذه الأبيات إلى صديقه وصنوه حافظ ابراهيم فأجابه حافظ بالأبيات الآتية:

عجبت للنيل يدرى أن بلبلـــــــه صــــاد ويسقى ربا مصر ويسقينا

تالله ما طاب للأصحـــــاب مورده ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينــا

لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئـــــه وقد نأينا وإن كنا مقيمينـــــــــــا

لقد ملك حب مصر مشاعر شوقى فكان يتغنى بعظمتها ويشيد بمفاخرها، وتفيض قصائده بهذا المعنى السامى. قال فى تحية مصر والنيل والهرم من قصيدة نظمها سنة ١٩١٤ يحيى بها الطائرين العثمانيين سالم وكمال حين قدومهما إلى مصر على متن طائرتهما عن طريق العريش وسيناء:

يا راكب الريح حى النيل والهرمـــــا وعظم السفح من سيناء والحرمــــا

وقف على أثر مر الزمان بـــــــــــه فكان أثبت من أطواده قممـــــــــا

واخفض جناحك فى الأرض التى حملت موسى رضيعا وعيسى الطهر منفطما

وأخرجت حكمة الأجيال خالـــــــدة وبينت للعباد السيف والقلمـــــــــا

هذا فضاء تلم الريح خاشعــــــــــة به ويمشى عليه الدهر محتشمــــــا

وقال من قصيدة له فى أبى الهول:

أبا الهول طال عليك العصــر ... وبلغت فى الارض أقصى العمر

فيالدة الدهر لا الدهر شــــب ... ولا أنت جاوزت حد الصغــــر

إلام ركوبك متن الرمـــــــا ... ل لطى الأصيل وجوب السحــر

تسافر متنقلا فى القـــــــرو ... ن فأيان تلقى غبار السفـــــر؟

أبينك عهد وبين الجبـــــــا ... ل تزولان فى الموعد المنتظـر

أبا الهول أنت نديم الزمــــا ... ن نجى الأوان سمير العصـــر

ظليل الحضارة فى الأوليـــــ ... ن رفيع البناء جليل الأثـــــر

وختمها بقوله:

تحرك أبا الهول هذا الزمان ... تـــــحرك ما فيه حتى الحجر

وقال فى الأهرام من قصيدة له سنة ١٩٢٢:

قف ناج أهرام الجلال وناد ... هل من بناتك مجلس أو نــــاد

تشكو ونفزع فيه بين عيونهم ... إن الأبوة مفـــــــزع الأولاد

ونبثهـــم عبث الهوى بتراثهم ... من كل ملق للهوى بقيـــــاد

ونبين كيف تفرق الأخوان فى ... وقت البلاء تفرق الأضـــــداد

إن المغالط فى الحقيقة نفسه ... باغ على النفس الضعيفة عــــاد

****

قل للأعاحيب الثلاث[1] مقالـــة ... مــــــن هاتف بمكانهن وشاد

لله أنت فما رأيت على الصفــا ... هذا الجلال ولا على الأوتـــاد

لك كالمعابد روعة قدسيــــة ... وعليك روحانية العبــــــاد

أسست من أحلامهم بقواعــــد ... ورفعت من أخلاقهم بعمــــاد

قم قبل الأحجــار والأيــدى التى ... أخــذت لهـــا عهـــدا من الآباد

(١) يشير إلى الأهرام الثلاثة

وخـــذ النبوغ من الكنانـــة إنها مهد الشموس ومسقط الآراد[1]

وقال يشيد بعظمة الأهرام من قصيدته (على قبر نابليون):

قم إلى الأهرام واخشع واطـــرح خيـــلة الصيد وزهو الفاتحين

وتمهل إنما تمشى إلـــــــــــى حـــرم الدهـــر ومحراب القرون

هو كالصخرة عند القبــــــط أو كالحطيم الطهـــر عند المسلمين

وتسنم منبرا من حجـــــــــــر لم يكن قبلك حـــــظ الخاطبين

وادع أجيالا تولت يسمعـــــــــوا لك وابعـــث فى الأوالى حاشرين

وأعدها كلمات أربعـــــــــا[2] قد احاطت بالقرون الأربعيـــن

قد عرضت الدهر والجيش معـــا غايـــة قصر عنها الفاتحـــون

عظة قومى بها أولـــــــى وإن بعـــد العهد فهل يعتبـــــرون؟

---

(١) وقت ارتفاع الشمس

(٢) يقصد الجملة الى قالها بونابرت لجنوده قبل معركة الأهرام عام ١٧٩٨ "أن أربعين قرنا من الزمان تنظر إليكم من فوق قمم هذه الأهرام "

ووضع شوقى نشيدا جميلا للنيل يتغنى به الشباب والمواطنون قال:

النيل العذب هو الكوثر　　　والجنة شاطئه الأخضر
ريان الصفحة والمنظر　　　ما أبهى الخلد وما أنضر

****

البحر الفياض القدس　　　الساقى الناس وما غرسوا
وهو المنوال لما لبسوا　　　والمنعم بالقطن الأنــــور

****

جعل الإحسان له شرعا　　　لم يخل الوادى من مرعى
فترى زرعا يتلو زرعا　　　وهنا يجنى وهنا يبــــذر

****

جار ويرى ليس بجار　　　لأناة فيه ووقـــــار
ينصب كتل منهـــار　　　ويضج فتحسبه يــــزار
حبشى اللون كجيرتـــه　　　من منبعه وبحيرتـــه
صبغ الشطين بسمرته　　　لونا كالمسك وكالعنبــر

وفى سنة ١٩٢٠ وضع نشيدا وطنيا أقرته اللجنة التى ألفت فى هذا العام لاختيار نشيد وطنى لمصر فقال:

بنى مصر مكانكمو تهيـــا　　　فهيا مهدوا للملك هيـــا
خذوا شمس النار له حليـــا　　　ألم تك تاج أولكم مليـــا
على الأخلاق خطوا الملك وأبنوا　　　فليس وراءها للعز ركـــن
أليس لكم بوادى النيل عــــدن　　　وكوثرها الذى يجرى شهيـــا

لنا وطن بأنفسنا نقيـــــه وبالدنيا العريضة نفتديه
إذا ما سيلت الأرواح فيه بذلناها كأن لم نعط شيئا

****

لنا الهرم الذى صحب الزمانا ومن حدثانه أخذ الأمانا
ونحن بنو السنا العالى نمانـــا أوائل علموا الأمم الرقيا

****

تطاول عهدهم عزا وفخرا فلما آل للتاريخ ذخــــــرا
نشأنا نشأة فى المجد أخرى جعلنا الحق مظهرها العليا

****

جعلنا مصر ملة ذى الجلال وألفنا الصليب مع الهلال
وأقبلنا كصف من عــــوال يشد السمهرى السمهريـــا

****

تقوم على البناية محسنينا ونعهد بالتمام إلى بنينا
نموت فداك مصر كما حيينا ويبقى وجهك المفدى حيا

ويذكر توت عنخ آمون وعظمة حضارة عصره بعد أن اكتشفت كنوزه فى (وادى الملوك) فيقول:

درجت على (الكنز) القرون	وأتت على الدن[1] السنـــــــون
يا ابن الثواقب مـــن (رع)	وابن الزواهر من (أمــــــون) [2]
نسب عريق فى الضحـــــى	بذ القبائـــــل والبطـــــــــون
أرايت كيف يئووب مــــــن	غمر القضــــاء المغرقـــــون
وتدول آثـــــار القـــــرو	ن على رحى الزمـــن الطحــون
حب الخلود بنى لكـــــــم	خلقـــا به تنفــــــــــــــردون
لم يأخذ المتقدمــــــــــو	ن به ولا المتأخــــــــــرون
حتى تسابقتم إلى الإحســـان	فيمــــــا تعملـــــــــــــون
لم تتركوه فى الجليـــــــل	ولا الحقيـــر من الشئـــــوون
هذا القيــام فقل لنــــــــــا	اليوم الأخير متى يكـــــــون؟
البعث غاية زائـــــــــــل	فإن وأنتـــــم خالـــــــدون
السبق من عاداتـــــــكم	أتـــرى القيامــــة تسبقــــون ؟
أنتم أساطيـــــن الحضــــا	رة والبنــــــــاة المحسنــــون
المتقنــــون وإنمــــــــــا	يجــــزى الخلــــود المتقـــــون

---

(١) الدن : باطية الخمر

(٢) رع وأمون من ألهة مصر القديمة

يتغنى بالنيل

نظم هذه القصيدة الرائعة يتغنى فيها بالنيل، فصور الحياة للوادى وأهله، وأبدع فى وصف روعته وجماله وجلاله، ثم انتقل إلى قدماء المصريين ومفاخرهم، وهى القصيدة التى تغنيها أم كلثوم فتزيدها بهاء وجمالا:

من أى عهد فى القرى تتدفــق وبأى كف فى المدائن تغــــــــدق

ومن السماء نزلت أم فجرت من عليا الجنان جداولا تترقـــــــرق

وبأى عين أم بأية مزنـــــــة أم أى طوفان تفيض وتفهـــــــــق

وبأى نول أنت ناسج بـــــردة للضفتين جديدها لا يخـــــــــلق

تسود ديباجا إذا فارقتهـــــا فإذا حضرت اخضوضر الإستبرق[1]

أتت الدهور عليك مهدك متـرع وحياضك الشرق الشهية دفـــــق[2]

تسقى وتطعم لا إناؤك ضائـــق بالواردين ولإخوانـــك ينفـــــق[3]

والماء تسكبه فيسبك عسجـــدا والأرض تغرقها فيحيـا المغـــرق

تعي متابعك العقول ويستـــوى متخبط فى علمهـــا ومحقـــق

إلى أن قال:

دين الأوائل فيك ديــــن مروءة لم لا يؤله من يقوت ويرزق

لو ان مخلوقا يؤله لم تكــــن لسواك مرتبة الألوهــة تخلق

جعلو الهوى لك والوقار عبادة إن العبادة خشيــة وتعلــــق

---

(١) الديباج والاستبراق : ثوب الحرير

(٢) دفق : الفرقى

(٣) ينفق : يفنى أو يقل

دانوا ببحر بالمكــارم زاخـــــر عذب المشارع مده لا يلحق

متقيد بعهــوده ووعــــــوده يجرى على سنن الوفاء ويصدق

يتقبل الوادى الحيـــاة كريمــة من راحتيك عميمــة تتدفـــق

إلى أن قال يصف مهرجان وفاء النيل عند قدماء المصريين وكيف كانت "عروس النيل" تقدم قربانا له كل عام:

والمجد عند الغانيـــات رغيبــة يبغى كما يبغى الجمال ويعشــق

إن زوجوك بهــن فهى عقيـــدة ومن العقائد ما يلــب ويحمـــق

ما أجمل الإيمـــان لولا ضـلـــة فى كل دين بالهدايـــة تلصــق

زفــت إلى ملك الملــوك يحثهــا دين ويدفعها هــوى وتشــــوق

ولربما حســدت عليــك مكانهــا ترب تمســح بالعروس وتحــدق

مجلــوة فى الفــلك يحدو فلكهــا بالشاطئيــن مزغرد ومصــفــق

فى مهرجان هــزت الدنيــا بــه أعطافها واختال فيــه المشـــرق

فرعون تحــت لوائه وبنــاتـــه يجرى بــهن على السفين الزورق

حتى إذا بلغت مواكبهــا المــدى وجرى لغايتــه القضـــاء الأسبــق

وكسا سماء المهرجان جــلالـــة سيف المنيــة وهو صلــت يبــرق

وتلفتــت فى اليم كــل سفينـــة وانثال بالوادى الجمــوع وحدقــوا

ألقــت إليك بنفسهــا ونفيســـها وأتتك شيقــة حواهــا شيـــــق

خلعــت عليــك حياءها وحياتها أأعــز من هذيــن شئ ينفـــــق؟

وإذا تنــاهى الحب واتفق الفدى فالــروح فى باب الضحيــة أليــق

إلى أن قال يذكر النيل وأنه مصدر الحياة والحضارة لمصر والوادى:

أصل الحضارة فى صعيدك ثابت ونباتهــا حسن عليك مخلـــق [١]

---

(١) مخلق : متطبب

ولدت فكنت المهد ثم ترعرعــت ... فأظلهـا منــك الخفــى المشفـــق

ملأت ديارك حكمـــة مأثورها ... فى الصخر والبردى الكريم منبق[1]

وبنت بيوت العلم باذخــة الذرى ... يسعى لهــن مغرب ومشـــــرق

واستحدثت دينا فكان فضائـــلا ... وبناء أخــلاق يطول ويشــهـق[2]

مهد السبيل لكــل دين بعـــده ... كالمسك ريــاه بأخــــرى تفتـــق

يدعو إلى بر ويرفع صالحــــا ... ويعاف ما هــو للمروءة مخلـــق

وقال فى ختامها:

يا نيل أنت بطيب ما نعت (الهدى) ... وبمدحة (التوراة) أحرى وأخلق

وإليك يهدى الحمد خلق حازهـم ... كنف على مر الدهــور مرهــق[3]

وإلى جانب هذه الأشعار الوطنية الداعية إلى التطور والتقديم نجد شوقى يهتم بالشباب، ويدعوهم إلى التضحية والفداء من أجل الوطن فيقول:

اليــوم نســود بأيدينـــــا ... ونعيــد محاســن ماضينــا

ونشيــد العــز بأيدينـــــا ... وطن نفــديـــــه ويفدينــا

****

وطــن بالحــق نؤيــــــده ... وبعيــن الله نشيـــــــده

ونحسنــــه ونزينـــــــه ... بمآثرنـــــا ومساعينـــــا

سر التاريــخ وعنصـــــره ... وسرير الدهـــــر ومنبــره

وجنان الخلــد وكوثـــره ... وكفى الآبــــاء رياحينـــا

****

نتخــذ الشمــس له تاجـــا ... وضحــاهــا عرشا وهاجـــا

---

(١) منبق : مصطف

(٢) يشهق : من شهق الجبل ارتفع

(٣) المرهق : كثير غشيان الناس والأضياف

وسماء السؤدد أبــراجـــــا   وكذلك كـــان أولينــــــــــــا

العصـــر يراكـــم والأمــــــــم   والكرنك يلحــظ والهـــــــرم
ابنى الأوطـــان ألا همـــــــم   كبنـــاء الأول يبنينــــــــــــا

****

سعيا أبدا سعيا أبـــــــــدا   لأثبـــل المجـــد وللعليـــــا
ولنجعل مصر هى الدنيـــا   ولنجعـــل مصر هى الدنيـــا

وظل شوقى يتغنى بالوطنية ويترنم بأنغام الحرية حتى آخر نفس فى حياته.

الفصل الثالث

مسرحيات شوقى

تأثر شوقى بالوسط الأوروبى وبالشعر الأوروبى تاثرا كبيرا خلال دراسته بفرنسا، حيث ظل فى شعره متأثرا بالبيئة الأوروبية وبالفنون الموجودة بها وحاول تقليد تلك الفنون وكان من أهم ما حاوله وضع أول محاولة جادة للمسرحية الشعرية فى الأدب العربى، فكتب فى سنة ١٨٩٣ مسرحية: "على بك الكبير أو فيما هى دولة المماليك "وأرسلها إلى الخديوى عباس الثانى الذى تولى عرش مصر بعد والده توفيق ولما كان الخديوى قد تلقى هذه المسرحية بفتور فقد صرف شوقى عن هذا الاتجاه فلم يعد إليه. إلا فى أخريات حياته بعد أن انتهى عصر الخديوية واقترب من الشعب وأشتد ضغط النقاد عليه ومطالبتهم له بأن يخرج بشعره عن المتبع لدى الشعراء ويحاول التأليف المسرحى الذى ازدهر فى كافة الآداب العالمية الحديثة وعندئذ كتب "مصرع كليوباتره" ثم "مجنون ليلى" ثم "قمبيز" وعاد إلى مسرحيته القديمة عن على بك الكبير فى سنة ١٩٣٢ فأعاد كتابتها بشكل جديد وغير من بعض حوادثها. ثم قدمها إلى اللجنة العليا لمؤتمر الموسيقى الشرقية الذى عقد حينذاك فى القاهرة تحت رعاية الملك فؤاد الأول . وقد أخرجتها بالفعل فرقة فاطمة رشدى على مسرح الكورسال ، ولكنها لم تنل سوى نجاح محدود وفيما يلى نعرض لمسرحياته ونبتدئ بمسرحية على بك الكبير وسبب ذلك هو الرغبة فى المقارنة بين المسرحية الأولى لشوقى ومسرحياته الأخرى لتوضيح تطور فن شوقى الشعرى والدرامى.

وبالرجوع إلى مسرحية على بك الكبير فقد كتب شعرا وكان شوقى لا يزال فى أول الشوط فملكته الشعرية لم تكن قد تطورت ، وقدرته الغنائية والموسيقية لم تكن قد التصقت بموهبته الشعرية وأثرت عليها، ولذلك جاءت صياغتها مختلفة لصياغة مسرحياته الأخيرة، لقد كان متأثرا فى أول الأمر بالفكرة العامة التى كانت سائدة عن المسرح عندما كان يسمى "بالتشخيص" وينظر إليه كفن شعبى يقصد به التسلية والترفيه، ويصاغ بلغة أقرب ما تكون إلى لغة العوام أو الزجل الشعبى: ولذلك حاول أن يجمع بين خصائص الفن الأوروبى ومتطلبات الشعب المصرى الذى يكتب له، فاختار موضوعا تاريخيا مصريا ، ثم كتبه بلغة قريبة من لغة الحديث فى مصر، وركز اهتمامه على الحركة والحوار لا على الشعر وروعة القصائد وصور دولة المماليك كحالة سياسية واجتماعية سيطرت على المشرق العربى ووضعت تقاليد انتلقت من عصر إلى آخر وذلك أن مصر ورثت بعض هذه التقاليد وقد أحسن شوقى استخدام خياله ليوفر لمسرحيته عناصر الصراع الداخلى التى تبعث الحركة فى اللوحة التاريخية التى أراد تصويرها.

لقد اختار شوقى على بك الكبير بطلا لمسرحيته، حيث تطلعت نفس هذا المملوك إلى الانفراد بشئون الحكم حيث كان رجلا طموحا استقل بمصر عن العثمانيين واتخذ لنفسه لقب السلطان عام ١٧٦٩م ووسع من رقعة ملكه بالاستيلاء على اليمن وجدة ومكة وشبه جزيرة العرب ، ثم غزة ونابلس والقدس ويافا وصيدا ودمشق، وعندئذ حرض الأتراك قائده محمد بك أبو الذهب الذى كان مملوكا، تبناه على بك الكبير فغدر بسيده ومازال به حتى قتله ، وخلفه فى الولاية على مصر، ولما رأى شوقى ان

هذا الموضوع لا يكفى لتأليف دراما فتخيل قصة أخرى هى قصة غرام مراد بك باحدى جواريه وهى نفيسة المرادية التى اشتراها على بك الكبير واتخذ منها زوجة له. ونجح شوقى فى الربط بين الموضوعين بأن جعل مراد بك يتآمر مع محمد أبو الذهب لكى يفوز بزوجة – على بك الكبير– بعد قتله. وقد أجمع النقاد على أن هذه المسرحية غنائية أكثر منها درامية.

وحوار المسرحية يوضح مبلغ جشع المماليك وقسوتهم حتى أنهم كانوا يحصلون ضرائب عشر سنوات لم يحل منها غير ضرائب عام واحد– كما يوضح مبلغ ضعف الشعب الذى لم يقاوم هؤلاء بل رضخ لمتطلباتهم، وقد أحاط شوقى على بك الكبير بشئ من النبل بأن أبرز سمو خلقه الوطنى فجعله يرفض معونة الروس بعد ان تحالف ضده المماليك والأتراك وهرب إلى صديقه ظاهر العمر والى عكا، كما اتخذ من هذا الموقف وسيلة لتصوير عنصر دراماتيكى يدور فى نفس هذا البطل حيث يقول:

مالى قعـــدت وتركيـــا مقهـــورة	والروس حولى يخطبون ودادى
أسطـــولهم بيدى وقائــــدهم مـــعى	سأصيـــب جندى عنده وعتادى
لا يا على ، رويد فى الغضب اتئد	ما تـــلك خطة حكمـــة ورشاد
ماذا جنـــت مصر على وأهلـــها	إن الجنـــاة على هـــم أولادى

وينتهى هذا الصراع الخاطف فى المسرحية الجديدة بتغلب نزعة الخير والوطنية على شهوات على بك الكبير فيقول:

لا أستعين على الأهل الغريب ولا	أرمى الذئاب على غابى وأشبالى

كما يقول:

رباه ماذا يقول المسلمون غدا	إن خنت قومى وأعمامى وأخوالى
يقال فى مشرق الدنيا ومغربها	فعـــلت فعـــلة نـــذل وابن انـــذال

بل إنه ليعرف لمصر فضلها ويعترف بهذا الفضل فيقول:

بلد رعانى فى الصبا وأحلنى بعد الشباب مراتب القواد

كما يقول:

لا تنسى موضع مصر واذكر مالها من أنعم سلفت وبيض ايادى

ولم يقف شوقى من مسرحيته الجديدة عند هذا التغيير الجوهرى الذى يقرب بطل المأساة من نفوس المشاهدين والقراء فقد عزز جوانب خير أخرى عديدة فى نفس هذا البطل وأضاف إليها الكثير فى المسرحية فجعل منه رجلا نبيل الخلق يصيح قائلا:

بعدا وسحقا لعلياء الأمور إذا لم ألتمسها بخلق فاضل عال

وإلى جانب ذلك فهو بار بالفقراء يعنى بالأزهر وبالثقافة، فعل شوقى كل هذا لكى يجلب لبطل قصته عطف المشاهدين.

وبعد أن نشر شوقى فى سنة ١٨٩٣ مسرحية على بك الكبير فى طبعتها الأولى لم يعد إلى المسرح إلا فى سنة ١٩٢٧ حيث نراه ينشر "مصرع كليوباترة" ومنذ ذلك الحين توالت مسرحياته إلى ان توفى فى سنة ١٩٣٢.

لقد شاهد شوقى مسرحية كليوباترا فى فرنسا التى ألفها "أميل مورو" ومثلت عام ١٨٩٠ تم اطلع على مسرحية شكسبير، وأعجب يوم قرأها بعبقرية المؤلف التى تجلت فى نمو البناء الدرامى ولم يبق أمامه إلا أن يكتب المسرحية حتى إذا ما انتهى منها عرضها على عزيز عيد رجل المسرح ليناقشه فيها قبل عرضها على المسرح، لقد اعتمد شوقى فى كتابه: هذه المسرحية على ثلاثة مصادر هى:

١) كتاب عالم المصريات الكبير "ماسبيرو" فى تاريخ شعوب الشرق فى العصر القديم.

٢) مسرحية أنطونيو وكليوباترة لشكسبير والتى استعار فيها شوقى بعض الأسماء غير التاريخية فى مسرحيته وبخاصة اسم وصيفة كليوباترة التى سماها شكسبير "شارميان" Sharmian والتى أصبحت عند شوقى شرميون بل وبعض تفصيلات المعانى الشهيرة مثل ذلك البيت الرائع الذى يجريه شوقى على لسان قيصر عندما يرى كليوباترة ووصيفتيها صرعى دون أن يرى فيهن أثرا لجراح وهو قوله:

عجيب يا طبيب أرى قتيلا ولكن لا أرى أثر الجراح

فقد أجرى شكسبير نفس المعنى على لسان قيصر حيث يقول: "هل لى أن أعرف وسيلة موتهن لأنى لا أرى آثار الدم عليهن" وهى ترجمة تظهر إلى جانبها براعة شوقى الذى احتفظ للاستفهام فى النص الانجليزى بمعناه الذى يجمع بين السؤال والدهشة، بل وغلب الدهشة على السؤال على نحو ما يفعل النص الانجليزى.

٣) مشاعر شوقى الشخصية والهدف الذى رمى إليه من كتابة هذه المسرحية وهذه المشاعر وذلك الهدف نجدها مبسوطة مفصلة فى النظرات التحليلية التى أرفقها شوقى بمسرحيته، إذ نراها تفصل المواضع التى جانب فيها شوقى التاريخ، وتبرر هذه المجانبة بحرص شوقى على أن يرد إلى كليوباتره- كملكة مصرية – اعتبارها أمام التاريخ ، وأن يدافع عن سمعتها. ويجرى على لسانها ساعة تناولتها الأفعى لتمهد لها من صدرها قصائد وخاتمة من أروع الشعر فيه دفاع

عن كليوباتره من موقفها ما يثير الإعجاب بها وبالشعر الذى يجرى على لسانها حيث يقول:

وقد علم البرية أن تاجـــــــــــى	نمته الشمس والأســـر العوالى
يطالبنــــى به وطن عزيــــــــــــز	وآبـــاء ودائعـــــــهـم غــوالى
أأدخل فى ثياب الذل رومـــــــــــا	وأعرض كالسبى على الرجال
إذا غير الملوك أبى وجــــــــــدى	وغير طرازهم عمى وخـــالى
سأنزل غيـــر هائبة إذا مـــــــــا	تلمظـــــت المنيـــــة للنـــزال
أموت كما حييت لعرش مصـــــــر	وأبـــذل دونــــه عرش الجمـــال
حياة الذل تدفع بالمنايـــــــــــــا	تـــعالى حيـــة الوادى تعـــالى

ويرجع ذلك إلى أن شوقى بالرغم من تقربه إلى الشعب المصرى منذ أن أثبت وجوده بثورة ١٩١٩ الرائعة، إلا أنه ظل مع ذلك يرى فى ملوك مصر بؤرة الوطنية ورمزها الأول، حتى خيل إليه أن دفاعه عن ملكة حكمت مصر يعتبر دفاعا عن الوطنية المصرية.

ومع ذلك فإن شوقى لم يستطع أن يطمس الحقائق التاريخية التى تثبت انحلال كليوباتره الشخصى وخضوعها لمطامعها الجامحة وشهواتها الحيوانية- فتجعل منها شخصية حقيرة بغيضة لدى المصريين، والراجح أن شوقى قد أحس، فى غموض بهذه الحقيقة النفسية الكبيرة فحاول أن يصور شيئا من حقيقة شعور المصريين عندئذ ضد هذه الملكة الداعرة ، وصور هذه الحقيقة عند بعض الشخصيات المصرية الثانوية فى المسرحية وبخاصة شخصية "حابى"، الذى لا يتورع فى مطلع الرواية عن أن يعلن تمرده على كليوباترة ومخازيها. وقد يكون فى هذه الأوصاف شئ من

الصدق ولكنها على أية حال تتنافى مع الهدف الذى رمى إليه شوقى وهو إرضاء عاطفة الوطنية عند المصريين واكتساب إعجاب الجماهير.

والواقع أن تاريخ كليوباتره طويل حافل بالأحداث الدراماتيكية، وليس من الممكن، ولا من المعقول أن يحشد مؤلف مسرحى كل أحداثه فى مسرحية واحدة.

ويأخذ النقاد على شوقى أنه قد أفسد التاريخ عندما زعم فى مسرحيته أن كليوباتره لم تنسحب من معركة اكثيوم البحرية عام ٣١ قبل الميلاد أو من معركة الاسكندرية البرية عن جبن أو خيانة لانطونيو بل لسياسة عليا رسمتها لتحقيق مجد مصر الذى رأته يتأتى بأن تترك الرومان يفنى بعضهم بعضا ، فيخلو لها الجو وتستطيع أن تسيطر على العالم وان تحل الاسكندرية محل روما. أو عندما زعم أنها لم تكن مسئولة عن الخبر الكاذب الذى وصل إلى أنطونيو عن انتحارها، وجعل المسئول عنه طبيب كليوباتره الكاذب المتآمر. حقيقة أن المؤلف المسرحى ليس مؤرخا ولا يطالب بأن يكون مؤرخا ، وإنما هو أديب له أن يتصرف فى جزئيات الحياة المعاصرة عندما يأخذ فى تصويرها ولكن بشرط ألا يلوى عنق الحقيقة .

حقيقة أن شوقى لم يخرج على أصول الفن المسرحى خاصة وأن الهدف الذى اختاره وحدده لنفسه كان رد اعتبار كليوباتره أمام التاريخ، وإثارة عطف الجماهير عليها والإعجاب الوطنى بها.

وبالنسبة لمسرحية شوقى الثالثة "قمبيز" فقد تناول شوقى فى هذه المسرحية فترة حاسمة فى تاريخ مصر ، وهى فترة القضاء على استقلال مصر وسيادتها، ووقوعها فريسة فى يد الفرس منذ أواخر القرن السادس

قبل الميلاد ومع أن هذا الغزو لمصر كان لأسباب سياسية واقتصادية وعسكرية تتصل اتصالا وثيقا بالصراع الذى كان سائدا عندئذ بين الفرس من جهة، واليونان وقرطاج من جهة أخرى، وتطلع الفريقين إلى الاستيلاء على مصر لترجيح كفة الصراع، فقد آثر شوقى أن يستخدم لفنه المسرحى أسطورة رواها المؤرخ اليونانى القديم هيرودوت ونقلها عنه بعض المؤرخين المحدثين، وهى تلك الأسطورة التى تزعم أن "قمبيز" غزا مصر لأنه طلب إلى أمازيس فرعونها، أن يزوجه من ابنته ، ولكن أمازيس غشه.. فبدلا من أن يزوجه من ابنته "نفريت" زوجه من "نتيتاس" ابنه : "ابرياس" الفرعون الذى قتله امازيس واستولى على عرشه، ثم اكتشف قمبيز هذا الغش فثارت حفيظته وانتقم من فرعون بغزو مصر، وسفك دماء أبنائها ونهب خيراتها، وقام بتدمير معابدها، وقتل عجل أبيس اله المصريين القدماء.

وليس من شك فى أن شوقى استخدم الأسطورة فى هذه المسرحية على التاريخ الواقعى... إذا رأى أنها أكثر مواتاة لفنه ، وأوفر حظا فى خدمة الهدف الذى رمى إليه من تمجيد روح الفداء والتضحية الوطنية فى شخصية "نتيتاس" التى قدمت نفسها قربانا على مذبح الوطن، ومعنى ذلك أن شوقى قد آثر لفنه أن يخرج من مجال التاريخ إلى مجال الأسطورة .

لذلك كان من المنطقى النظر إلى المسرحية على أساس الأصول الفنية فى تصوير الشخصيات ، وهو الهدف الذى قصد إليه شوقى.

ومن البين أن الشخصية الأساسية فى هذه المسرحية ليست "قمبيز " وانما هى "نتيتاس" التى اراد شوقى أن يصور فيها الروح الوطنية التى

رغب أن يحقق بها المشاركة الوجدانية، التى تضمن استجابة جموع المشاهدين.

والواقع أن شوقى قد أراد أن يجسم الوطنية المصرية فى شخصية "نتيتاس" وأن يجعل منها ما يمكن أن يشبه باللؤلؤة التى لا تذوب فى الأوحال، وذلك لأنه صور مصر عندئذ على حقيقتها من حيث الضعف والانحلال والإسراف فى البذخ، حتى "قتل النعيم حمية الشبان"، وأصبح جيش مصر نفسه خليطا من المرتزقة وبخاصة من اليونان ، الذين وصل أحدهم وهو فانيس إلى رتبة القائد، ثم غدر بمصر وجيشها وأفشى سرها إلى قمبيز ، ثم التحق بالجيش الفارسى ولكننا مع ذلك نلاحظ أن شوقى لم يستطع أن يصون صفاء هذه اللؤلؤة، ولا أن يوضح لنا سر نقائها، وحفظها من الأردان.

قدم لنا شوقى "نتيتاس" على أنها المصرية سليلة الفراعنة التى تفدى البلاد بنفسها، وتدفع عن مصر الأعداء، وتهتف دائما "تعيش مصر وتبقى".

فشوقى يحدثنا أن "نتيتاس" كانت تحب "تاسو" حارس أبيها، وكان هذا الجندى يبادلها حبا بحب طالما كان أبوها فرعونا لمصر، حتى إذا قتله "أمازيس" واغتصب منه العرش ، تحول "تاسو" من "نتيتاس" إلى "نفريت" بنت فرعون الجديد، وذلك لأنه على حد قول شوقى:

يعشق الجاه والغنى ولا يحب الغوانى

فهو كالنحلة من زهر إلى زهر، وكالنعمة من قصر إلى قصر. ولم يستطع شوقى أن يهمل ما يثيره مثل هذا الغدر فى "نتيتاس" من الغيرة الشديدة فنراها تخاطب "تاسو" بقولها:

أقسمت لى فاذهب فأقسم لها فإننا أهل للقسم الحانث

وبعد أن استعرضنا لمسرحيات شوقى التى استمد موضوعاتها من تاريخ مصر، وهى "على بك الكبير" و"مصرع كليوباتره" و"قمبيز" نعرض للمسرحيات التى استقاها من تاريخ العرب ، وأولى هذه المسرحيات هى "مجنون ليلى" التى قام باختيارها وهى قصة خيالية لا تعتبر تاريخا، بل تكاد تكون رمزا لجميع قصص الغرام أو الهوى العذرى، الذى تفشى فى الحجاز فى صدر الدولة الأموية، لأسباب اجتماعية واقتصادية وسياسية، يعرفها مؤرخو الأدب العربى وقد أوضح الدكتور طه حسين ذلك فى كتابه "حديث الاربعاء" فانكر وجود قيس بن الملوح إنكارا مطلقا. كما أنكرها "الاصفهانى" مؤلف كتاب "الأغانى". لم يكن شوقى إذن فى مجال التاريخ عندما عالج هذه القصة، وإنما كان فى مجال القصة الخيالية، أو الأسطورة الشعبية. وكان باستطاعته ان يطلق لخياله العنان فى تصوير الشخصيات، وإبراز سماتها النفسية وخصائصها الروحية، كما كان باستطاعته ان يتصرف فى الأحداث التى تكون الحركة المسرحية تبعا للهدف الذى اختاره، والقيم الانسانية التى يريد ان يجلوها فى مسرحيته ، وأن يحرك بها نفوس القارئين او المشاهدين.

لقد كان شوقى يستطيع – أن يخلق فى الأدب العربى الحديث من قصة المجنون وليلى ، مسرحية إنسانية تشبه "روميو وجوليت" التى كتبها شكسبير فى الأدب الانجليزى. والذى أنتجها فى المرحلة الأولى من مراحل إنتاجه والتى تعد من أشهر القصص الغرامية. وموضوع القصتين قريب الشبه، فكل منهما يدور حول حب فتى لفتاة ، ثم قيام عوائق أمام هذا الحب العارم الذى يسعى إلى الزواج. وإذا كان شكسبير قد أرجع هذه

العوائق إلى عداوة متأصلة بين أسرتى العاشقين، فإن العوائق فى قصة مجنون ليلى تعود إلى عادات وتقاليد اجتماعية.

وقد تقيد شوقى فى مسرحيته بالكثير من التفاصيل التى يرويها صاحب "الأغانى" واقتبس منه أبياتا من الشعر كقصة المجنون مع الظبية وهى التى مطلعها:

رأيت غزالا يرتعى وسط روضة فقلت أرى ليلى تراءت لنا ظهرا

وكذلك الأمر فى عدد من الصور والمعانى التى ضمنها شوقى فى مسرحيته أو حورها إلى أسلوبه الخاص مثل قول المجنون لزوج ليلى يسأل عنها:

بربك هل ضممت إليك ليلى قبيل الصبح أو قبلت فاها

وأغنية جبل التوباد الشهيرة، وهو الجبل الذى كان قيس وليلى يرعيان الغنم على سفحه أيام الطفولة الأولى. ففى "الأغانى" وفى المسرحية نعثر على هذين البيتين.

وأجهشت للتوباد حين رأيته وكبر للرحمن حين رآنى

وأذرفت دمع العين لما رأيته ونادى بأعلى صوته فدعانى

لقد تقيد شوقى باختيار تفاصل تلك القصة وصياغتها شعرا غنائيا يبلغ الذروة أحيانا كثيرة، ولكنه لا يستطيع أن يخفى ضعف عنصر "الدراما" فى كثير من مواقف المسرحية، وبخاصة فى موقفها الأساسى.

أما عن ثانى المسرحيات التى استقاها شوقى من تاريخ العرب وكانت من الأساطير الشعبية التى نسج حولها الخيال الشعبى الكثير من أعمال البطولة والفداء فضلا عن الغرام ، والصراع العنيف بين قيمة الفرد الشخصية ووضعه الاجتماعى. فعنترة ابن زبيبة الحبشية فارس عربى

شجاع ولكن سواد جلده وانحداره من أمة حبشية يغمطه فضل هذه الشجاعة ولا يجعله أهلا لعبلة بنت مالك السيد العربى المعروف والرافض لزواج ابنته من عنترة.

فعنترة عبد وابن أمة، وكان عرب الجاهلية يتمسكون بالأنساب ويستميتون فى سبيلها.

ولقد أغرت قصة عنترة خيال الشعراء والأدباء، وبخاصة بعد أن نماها الخيال الشعبى وضرب بها مختلف الآفاق. وأفسحت المجال أمامهم ليختاروا من وقائعها ما يلائم متطلباتهم ويحقق الأهداف التى يقصدون إليها.

فقد اختط شوقى طريقة فى مسرحيته تتمثل فى معارضة مالك فى زواج ابنته من عنترة وهى معارضة بلغت حد طلب رأس عنترة مهرا من منافسيه: "صخر" و "ضرغام"، وأنهى مسرحيته بتآمر عبلة مع عنترة لكى تزف إليه هو لا إلى صخر فى ليلة زفافها بينما تزف إلى صخر الفتاة الأخرى ناجية التى كانت تحب صخرا قدر محبة عبلة لعنترة.

وهكذا تحولت قصة عنترة عند شوقى إلى ملهاة، بل ملهاة مزدوجة من النوع المسمى عند الغرب "تراجى كوميدى" خاتمتها انقلاب مسرحى مزدوج، هو زواج عنترة من عبلة، وصخر من ناجية.

وبالنسبة للمسرحية الثالثة التى استقاها شوقى من التاريخ العربى فكانت أميرة الأندلس وهى المسرحية الوحيدة التى كتبها شوقى نثرا، والتى تدور حوادثها حول الشاعر الملك المعتمد بن عباد الأندلسى آخر ملوك الطائف فى أشبيليه.

لقد كتب شوقى "أمير الأندلس " نثرا، مرسل فى الغالب الأعم، وهو لا يلجأ إلى الصنعة والسجع والمحسنات إلا فى المقطوعات الطويلة من الحوار حيث ظن أن الحليات اللفظية قد تقى من الملل الذى قد يتسرب إلى نفوس المشاهدين.

وقصة المعتمد بن عباد استقاها شوقى من كتاب "المقري" المعروف "بنفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب". ولكنه لم يكتف بالوقائع التاريخية المحزنة الخاصة بانقراض الطوائف فى أشبيليه، بل زاوج بينها وبين قصة خيالية نسجها حول حب بثنية بنت المعتمد للفتى العربى "حسون"، وانتهائهما بالزواج فى احد سجون شمال افريقية حيث استقر المقام بالمعتمد بن عباد بعد أن قضى ابن تاشفين- ملك المرابطين بافريقية- على ملكه ، وكان المعتمد قد اضطر إلى أن يستعين به لرد عدوان الغزاة. وبالنسبة لمسرحية الست هدى فقد استمدها شوقى من الحياة المصرية المعاصرة فى حى الحنفى بالسيدة زينب .

وهى تتناول عيبا أخلاقيا كان ولا يزال شائعا فى البيئةالمصرية وهو تكالب الرجال على المرأة ذات الثراء . فالست هدى امرأة استطاعت بأموالها وأملاكها أن تتزوج عددا من الرجال الواحد تلو الآخر، وكلما مات أحدهم، استبدلت به غيره طامعا فى مالها حتى فنى الجميع!! وعندما أدركها الموت ظن آخرهم أنه قد أصاب الثراء، وتوافد الناس عليه مهنئين، ولكنه لم يلبث أن اكتشف أن الست هدى قد أوصت بكل مالها لبعض صديقاتها وبعض جهات البر، وأنه لم يرث شيئا فجن جنونه، وخرج من المسرح مشيعا بالضحكات، واستهزاء المشاهدين.

والموضوع مضحك بطبيعته، كما أن الضحك فيه له مغزاه الأخلاقى والاجتماعى، إذ يعالج مشكلة من مشاكل حياتنا التى تتكرر بين كل وقت وحين.

والخلاصة أن مسرحيات شوقى لم تَخْل من روح الفكاهة التى تستند على مجاراة الروح المصرية المولعة بالنكتة المصرية والمرح الخفيف ، كما أنها تميزت بجزالة الأسلوب ، ووضوح المعنى، وفخامة اللغة وموسيقية التعبير.

لقد وضع شوقى أساس هذه المسرحيات وقام بتصميمها وكتب مادتها الشعرية، ولكنه استعان فى بنائها بصديقه الدكتور سعيد عبده الذى رتب فصولها وتولى تنسيق إطارها الفنى. لقد كان شوقى ينقد مسرحياته ويعيد النظر فيها لحرصه على الكمال الفنى لها.

وعند تقييمنا لمسرحيات شوقى يتضح أنها إذا كانت قد نجحت بقوة الشعر، وقدرة الممثلين على الأداء فأنها لم تنجح فنيا خاصة وأن البناء المسرحى فيها يحتاج إلى تعديل، ولشوقى العذر فى ذلك، فإنه لم يكن مسرحيا بقدر كونه شاعرا ملهما.

الخاتمــة :

وهكذا خلف شوقى للعربية ثروة شعرية جعلته وبحق أميرا للشعراء فقد وهب حياته للشعر الذى خاض به كل مجالات الحياة من وطنى إلى دينى ثم إلى غزل رفيع وقام بتسجيل آثار مصر ونيلها الخالد فى أشعاره كما قدم شوقى للمسرح العربى شعره المسرحى فى روايات مصرع كليوباتره ومجنون ليلى وعنتره وعلى بك الكبير وغيرها، فأصبح عن جدارة واستحقاق "أميرا للشعراء".

وعلى الرغم من الانتقادات التى وجهها البعض لشوقى خاصة العقاد والمازنى فى كتابهما "الديوان" فان الزمن أصدر حكمه لصالح امير الشعراء، وفرض عبقريته وخلوده، وأثبت أن شعره لا يموت فقيثارته الشعرية التى استخرج منها الأبيات والقصائد الرائعة التى عبرت عن رؤيته ومشاعره ما زالت حية فى النفوس فمع أنه فارق بجسده بعد حياة حافلة ورحل عن دنياه فى عام ١٩٣٢ عن عمر يناهز الثانية والستين عاما، فان التقدير الذى لقيه بعد وفاته كان أكثر من التقدير الذى لقيه اثناء حياته، فأقامت له مصر التماثيل فى الحدائق والميادين وأطلق اسمه على العديد من الميادين الرئيسية والمدارس وغيرها كما صدرت عدة دراسات عنه، ووضعت جوائز تشجيعية باسمه وإلى جانب ذلك فقد أقامت ايطاليا له تمثالا فى حديقة الخالدين بروما إلى جانب تماثيل عباقرة العالم بصفته شاعر الإنسانية الذى انفعل بحضارتها، وكان شعره صدى لأحداث التاريخ الإنسانى، وصدى لقضايا مجتمعه ووطنه الذى أحبه من كل قلبه وقال عنه:

وطنى لو شغلت بالخلد عنه   نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

أهم مصادر الدراسة

- أحمد شوقى:

١- الشوقيات ، القاهرة، ١٨٩٨.

٢- على بك الكبير أو ما هى دولة المماليك، القاهرة، ١٩٣٢م.

٣- مصرع كليوباترا، القاهرة، ١٩٣٩م.

- عبد الرحمن الرافعى: شعراء الوطنية فى مصر، القاهرة، ١٩٦٦م.
- عبد المنعم الجميعى: الخديوى عباس الثانى والحزب الوطنى، القاهرة، ١٩٨٠م.
- كامل الشناوى: زعماء وفنانون وأدباء، القاهرة، ١٩٧٢م.
- ماهر حسن فهمى. احمد شوقى، القاهرة، ١٩٨٥م.
- محمد صبرى: الشوقيات المجهولة ، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية فى أدبنا المعاصر، بيروت، ١٩٨٠م.
- محمد مندور: مسرحيات شوقى، القاهرة، ١٩٥٤م.
- محمد نصر: صفحات من حياتهم، القاهرة، ١٩٦٥م.

الدوريات:

- الأهرام : مارس ١٨٩٣.
- الوقائع المصرية: إعداد ١٨٩٠ ، ١٨٩١.